سيد صديق عبد الفتاح

موسوعة أسرار العشق
في التاريخ والادب

لغة العشق

في آسيا.. واوروبا



لغة العشق

في آسيا.. وأوروبا

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ

صدق الله العظيم

دار الأمين

طبع * نشر * توزيع

الجيزة : ٨ شارع أبو المعالى

(خلف المعهد البريطانى) العجوزة

تليفون و فاكس : ٣٤٧٣٦٩١

١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق

(خلف قاعة سيد درويش) الهرم

تليفون و فاكس : ٥٦٣٤٦٩٩

ص.ب : ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١

الطبعة الأولى

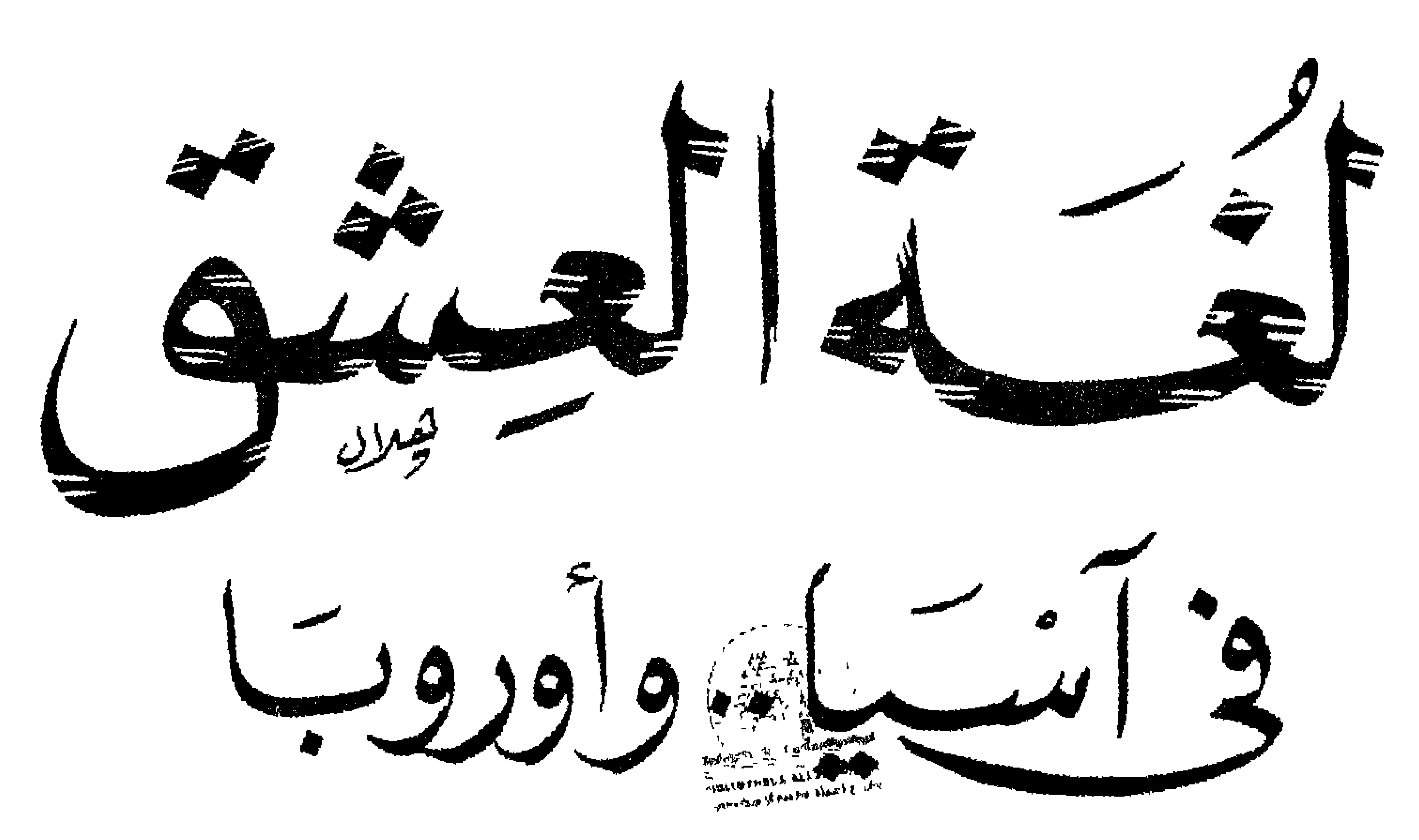
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

رقم الإيداع ١٠٠٨٧/ ١٩٩٧

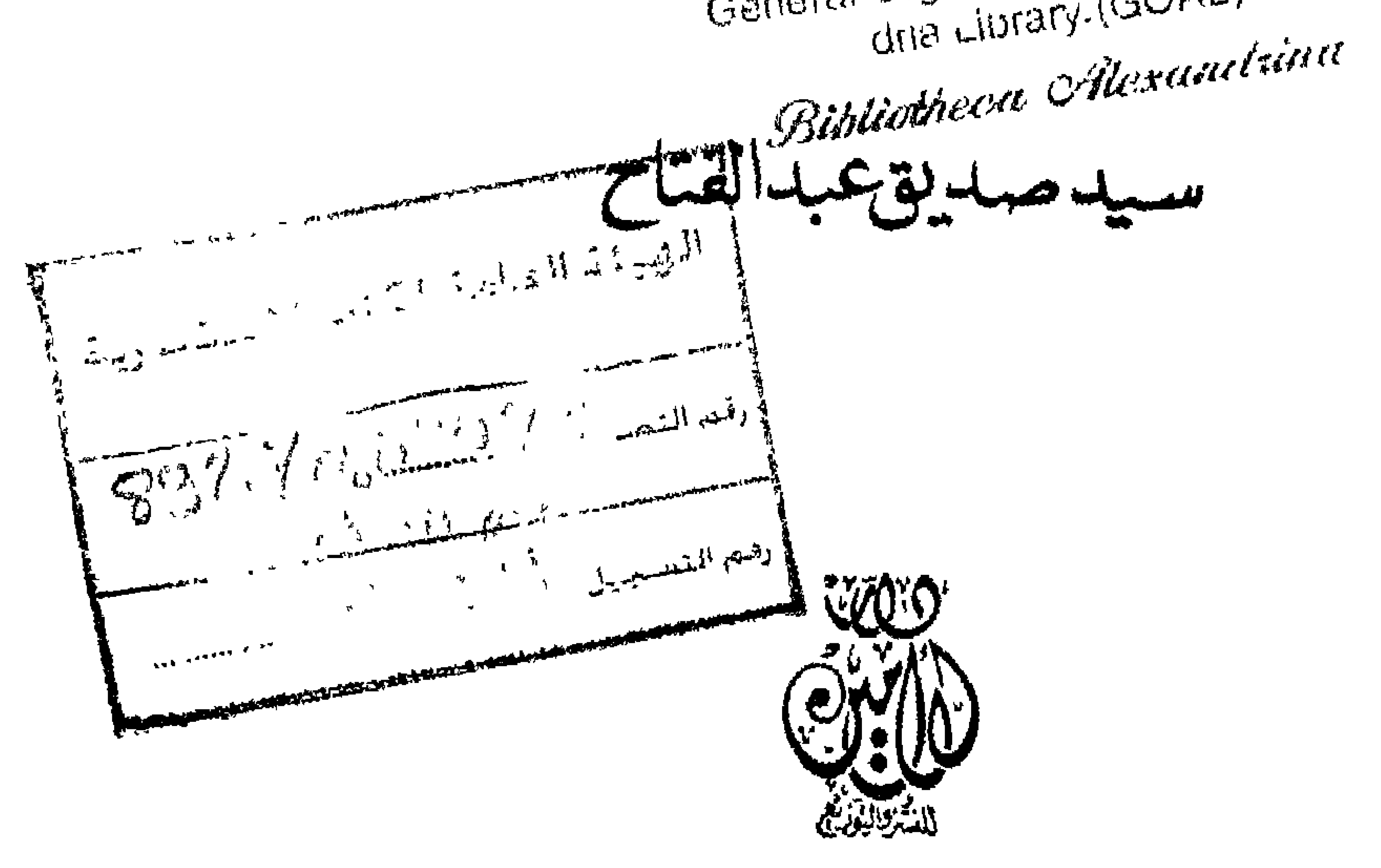
ISBN : 977-279-158-7

إخراج فنى : جمال فتحى أحمد

موسوعة أسرار العشق
في التاريخ والادب



سيد صديق عبد الفتاح



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

* عزيزى القارئ ...

سمعنا عن العشق وقصصه فى الآداب العربية . . وقرأنا عن العشق فى الآراء الغربية . . ولكن ماذا عن العشق فى الأفكار الفارسية . . والهندية . . والأوروبية ؟

فعنصر المعالى يرى : « **أن الإنسان لا يعشق ، ما لم يكن لطيف الطبع .. لأن العشق ينشأ من لطافة الطبع .. ألا ترى أن الشباب أكثر عشقاً من الشيوخ ؛ لأن طبع الشباب ألطف من طبع الشيوخ ؟ .. وكذلك لا يكون غليظ الطبع عاشقاً قط ؟ .. لأن هذه عِلّة تصيب خفاف الروح على الأكثر** » ..

* * *

و « العشق - عند سنائى - **محبوب يخطف الروح ، يأخذ القلب ، يقطع الرأس ، ويعلن السر .. والعشق هو الماء الذى يشعل النار ، والنار التى تحرق الماء .. والمعزول عن العشق مثل الطائر المنزلى ، لا يستطيع التحليق والارتفاع مع وجود جناحيه .. فهمّته : أن يأكل الحب ، وقوته : أن يطير حول المنزل .. والغرض ينافى العشق .. فالعاشق برئ من رغبته الخاصة ، وهو ينهض متخلصاً من الروح والجسم ولا يتكلم** » ..

و « **العشق الكامل يقوم على الانجذاب ، وفقدان الشعور بالنفس والأنا ، ويمثل وقاء للعاشق ذاته ضد الوساوس والنزعات التى تأتى من**

العقل بالذات عندما يستيقظ .. واستيقاظ العقل - بناء على هذا التصور - يمثل خطراً داهماً على العشق ، ويدل على بداية اضمحلاله » ..

* * *

ورأى العطار أن : « العشق هو القوة الخفية التى تدفع السالك إلى المضى قدماً فى الطريق ، آملاً فى لقاء المحبوب الأزلى .. والعشق نار .. أما العقل فدخان .. وما أن أقبل العشق حتى ولّى العقل الفرار .. فالعاشق ليس وليد العقل .. والعشق يسمو بالعاشق حتى يجعله يفنى فى ذات المعشوق » ..

و « إذا سكن العشق قلباً ، سارع القلب بالسيطرة على روح ذلك الشخص . . والرجل الذى تسيطر عليه هذه الآلام ، يخرج مضطرباً من بين الحجب » . .

و « العاشق من يكون فى نار وحرقة ، كما يكون متقد القلب ، ملتهباً ، ثائراً .. العاشق من لا يفكر لحظة فى العاقبة ، وإنما يكون غارقاً فى النار كبرق الدنيا » ..

* * *

ولقد قالت العباسة لأحدهم : « يا رجل العشق .. ما أنت إلا ذرّة على من يشرق عليه ألم العشق .. فإن كان رجلاً تنجب المرأة منه ، وإذا كان امرأة ، فحسبها أنها تنجب الرجل » ..

* * *

أما ابن الرومى فيقول : « إن العشــق جعل جسم الأرض يعلو على الأفلاك ، فرقص الجبل ، وأضحى خفيف الحركة .. العشق حل فى روح الطور – أيها العاشــق – فسكر الطور ، وخر موسى صعقًا .. إن المعشوق هو الــكل ، وأما العاشق فحجاب .. والمعشوق هو الحى ، وأما العاشق فميت .. وحينما لا تكون للعاشق رعاية من العشق ، فإنه يبقى تعسًا كطائر بلا جناح » ..

« وكيف يكون لى عقل يدرك ما أمامى وما ورائى ، حينما لا يكون نور حبيبى أمامى وورائى » ؟..

« إن العشق يقتضينا أن نبوح بهذا .. وإلا فكيف تكون المرآة ، إذا لم تعكس صور المرئيات » ؟ .

و « العشق نفسه هو الذى يصف لنا العشق وفعله » ..

***

والوشّاء يحدثنا عن العشق فى الهند قائلاً : قد بلغنا أن ببعض بلاد الهند قومًا لا يعشقون ، ويرونه ضربًا من السِّحر والجنون .. وزعموا أن العشق سبب النوى ، وفيه المذلة والعناء ، ومنه يكون السقم والضنى » ..

***

أما أبناء الغرب فيرون أن : « كثيرًا ما تطغى على العاشق مخيلته ، فلا يعود يرى المرأة على واقعها الراهن .. فالعاشق يكوّن شخصية حبيبته من عناصر زهيدة جدًا .. بل هو يحسن التكوين بقدر ما تكون المادة بين يديه هزيلة العنصر » ..

« إن الرجل العاشق يجول فى العالم مثل الماشى فى نومه بأعين تبدو أنها مفتوحة لأولئك الذين يلاحظونه .. إلا أن الحقيقة هى أنهم لا ينظرون غير أوهامهم الداخلية » ..

والعاشق : عبد رق . . إنما يعز عليه أن يعتق نفسه ، أو يتحرر من مظالم مستعبده . .

فلنتعرف – معًا عزيزى القارئ – **على لغة العشـق فى آسيا وأوروبا بين الإيمـــان ونقيضه .. بين فنون الفتون .. بين العقـــل والجنـــون .. بين الوجـــود والفنـــاء .**

سيد صديق عبد الفتاح



العشـــق
فى
الأدب الفـــارسى

(العشق فى الأدب الفارسى)

* يقول الأمير « عنصر المعالى »[1] فى كتابه : (النصيحة) المعروف بـ (قابوسنامه) :

« اعلم يا بنى أن الإنسان ما لم يكن لطيف الطبع لا يعشق ؛ لأن العشق ينشأ من لطافة الطبع ، وكل ما ينشأ من لطافة الطبع فهو لطيف ، ولما كان لطيفًا فإنه يتعلق بالطبع اللطيف ، ألا ترى أن الشبان أكثر عشقًا من الشيوخ ؛ لأن طبع الشبان ألطف من طبع الشيوخ ؟

وكذلك لا يكون غليظ الطبع ثقيل الروح عاشقًا قط ؛ لأن هذه علة تصيب خفاف الروح على الأكثر .

ولكن اجتهد أن لا تعشق وتجنب العشق ؛ لأن أمر العشق أمر ذو بلاء ، وخاصة إبان الإفلاس ، إذ كل عاشق مفلس لا يبلغ المراد ، وخاصة إذا كان شيخًا ؛ لأن الغرض لا يتحقق بغير المال ، فيكون قد سعى فى سفح دمه ، كما قلت فى هذا المعنى :

(نظم)

« كنتُ مفلسًا فحل بى الألم لذلك ، وبقيتُ محرومًا من وجهك لإفلاسى ، ولى مثل يليق بحالى ، المفلس يأتى من السوق صفر اليدين » .

***

(١) هو « كيكاوس بن اسكندر بن قابوس بن وشمكير بن زيار » (٣٩٩ - ٤٦٢هـ) .

فـإذا اتفق أن طاب لك الوقت يومًا مع شـخص ، فـلا تكن أسـيـر القلب ، ولا تشـغل قلبك بالـعشق باسـتـمـرار ، ولا تكن دائمًا مـتـابعًا للشـهوة ، فإن هـذا ليس شأن العقلاء ؛ لأن الرجل العاشق إما أن يكون فى الوصال أو الفراق .

وسَنَة من راحـة الوصل ، لا تسـاوى يومًا من ألَم الفـراق ، إذ أن رأس مال العشق : العناء ، وألم القلب ، والمحنة ! . .

ومـهـمـا يكـن ألمًا لـذيذًا ، فـإنك إذا كنت فى الفـراق تكـون فى العـذاب .

وإذا كنت فى الوصـال ، وعَـرف المعشـوق ما فى قلبـك ، فإنـك لا تعرف لذة الوصال عندما ترى دلاله ووقاحته وسوء طبعه !

وإذا كان ثَمَّت وصال يعقبه فراق ، فذاك الوصال أسوأ من الفراق .

وإذا كانت معشوقتك ملاكًا فى المثل ، فإنك لا تخلو فى أى وقت من ملامة الخلق ؛ لأن عادة الناس قد جرت هكذا !

فاحفظ نفسك ما استطعت وجانب العشق ، إذ لا يستطيع الاحتراز من العشق سوى العقلاء لأنه لا يمكن أن يصير شخص عـاشقًا بنظرة واحـدة .

فالعين ترى أولاً . . ثُم القلب .

فإذا أُعجب القلب ، مال إليه الطبع ، وعندئذ يطلب اللقاء .

وإذا جعلت شهوتك طوع قلبك ، وصيَّرت قلبك متابعًا للشهوة . . فإنك تدبر ثانيًا أن تراه [1] مرة أخرى .

---

(١) أى المعشـوق .

وإذا حصل اللقاء مرة ثانية يزداد ميل الطبع إليه ، ويصير هوى القلب أكثر تغلبًا فتقصد اللقاء مرة ثالثة ، وتدخل فى الحديث .

وإذا تكلمت وسمعت جوابًا ، يصير كل عقلك وفطنتك فى قيده ، مثل العجلة والرسن ، وتتخلف عن كل الأمور .

فإذا أردت أن تحفظ نفسك من بعد ذلك : لا تستطيع ؛ لأن الأمر يكون قد خرج من يدك .

ويزداد العشق كل يوم ، فيتحتم بعد ذلك ضرورة أن تكون متابعًا للقلب .

ولكن إذا حفظت نفسك في اللقاء الأول ، فإنه عندما يطلب القلب ، توكل به العقل حتى لا يُكثر من ذِكْر اسمه ، وتشغل قلبك بشيء ، وتستفرغ شهوتك فى مكان آخر ، وتغض الطَّرْف عن رؤيته ، فيكون كل ألم القلب أسبوعًا ، ولا يُذكر بعد ذلك .

ويمكنك تخليص نفسك من البلاء سريعًا ؛ ولكن عملاً مثل هذا لا يتأتى من كل أحد ، إذ يلزم رجل عاقل كامل العقل حتى يستطيع مداواة هذه العلة ؛ لأن العشق علة .

كما أن « محمد بن زكريا الرازى »[1] قد أورد فى « تقاسيم العلل » سبب علّة العشق ، وذكر علاجها ، مثل الصوم على الدوام ، وحمل الحمل الثقيل ، والسفر الطويل ، وما أشبه ذلك ! . .

أما إذا أحببت شخصًا ترضى برؤيته وخدمته ، فجائز عندى ، كما قال « أبو سعيد بن أبى الخير »[2] : لا مفر للآدمى من أربعة أشياء :

---

(١) أى هو من أشهر أطباء العرب ، ولد فى الرى عام ٨٦٤ - وتوفى عام ٩٣٢ م ، ولقب بـ(جالينوس العرب) . .

(٢) شاعر صوفى فارسى ، ولد بقرية ميهنة عام ٩٦٧ وتوفى عام ١٠٤٩ .

الأول : خبز .

والثانى : خرقة .

والثالث : خربة [1] .

والرابع : حبيب .

لكل شخص بحده ومقداره من وجه الحلال .

ولكن المحبة شىء ، والعشق شىء آخر .

وفى العشق لا يطيب الوقت لأى إنسان ، ويقول ذلك الرجل العاشق بيتًا مترجمًا عن نفسه .

* * *

بيت

« نار عشقك هذه لذيذة أيها الحبيب ، أرأيت قَطّ نارًا محترقة ولذيذة » ؟

* * *

واعلم بأن الرجل يكون فى المحبة مبتهج القلب دائمًا ، ويكون فى العشق فى محنة على الدوم .

ثم إنك إذا عشقت فى الشباب ، فثَمَّت عذر على أى حال ، ويعذرك الناس أيضًا ، ويقولون : إنه شاب .

فاجتهد أن لا تكون عاشقًا فى الشيخوخة فليس للشيوخ عذر قط .

وإذا كنت من عامة الناس فإن الأمر ، يكون أهون .

فإذا كنت ملكًا وشيخًا . . فحذار أن تفكر فى هذا المعنى ، ولا تعلق قلبك بأحد فى الظاهر ، فإن العشق للملك الشيخ أمر شاق .

* * *

(١) يعني بيت متواضع يأوى إليه .

(حكايــــة)

فى أيام جَدى « شمس المعالى » كانوا يتناقلون فكان ببخارى تاجراً له غـلام ثمنه ألفا دينار ، فحكى « أحمد بن سـعـد » هـذه الحكاية عند الأمير قائلاً :

- ينبغى لنا إرسال شخص يشترى ذلك الغلام .

فقال الأمير : ينبغى أن تذهب أنت .

فجاء « أحمد بن سعد » إلى بخارى ، وقابل النخاس ، وأحضروا الغلام ، واشتراه بألف ومائتى دينار ، وأتى به إلى (جرجان) .

فرآه الأمير ، وأُعجب به وعهد إلى الغلام بالدستاريه [1] ، فعندما كان يغسل يديه ، كان يقدم له منشفة ليجفف يده . .

وانقضت مُدّة ، وذات يوم غسل الأمير يديه ، فقدَّم له الغلام منشفة ، فجفف الأمير يده وهو يتأمل الغلام ، فأعجبته رؤيته ، وردَّ إليه المنشفة ، ومَرّ على هذا برهة ، فقال لأبى العباس العالم :

- قد أعتقت هذا الغلام ، ووهبت له القرية الفلانية ، لتعلم ذلك ، فاكتب منشوره ، واخطب له ابنة أحد الرؤساء بالمدينة ، ومُرْهُ بأن يقيم فى البيت حتى ينبت شعر وجهه ، وعندئذ يأتى إلىّ .

وكان أبو العباس وزيراً فقال :

الأمر للملك ، ولكن إذا اقتضى رأى الملك فليقُل لعبده : ما المقصود من هذا ؟

---

(١) تعريب (دستار دارى) أى وظيفة حمل المناشف والمناديل فى خدمة الأمراء والملوك .

فقال الأمير : اليوم جرى كذا وكذا ، وقبيح جداً أن يعشق الملك بعد سن السبعين ، ويجب عليّ ، بعد السبعين ، أن أكون مشغولاً برعاية عباد الله ، وبصلاح رعيتي وجندي ومملكتي .. فإذا انشغلت بالعشق ، لا أكون معذوراً عند الله ، ولا عند الخَلْق !

أما الشاب ، فيكون معذوراً مهما فعل ؛ ولكن يجب أن لا يظهر العشق دفعة ، ومهما تكن شابًا فالزم طريق الحكمة والحشمة والسياسة حتى لا يتطرق الخَلل إلى عملك ، فقد سمعت هكذا من عظيم أنه :

* * *

(حكايـــة)

كان للسلطان مسعود عشرة غلمان كانوا حفظة ثيابه الخواص ، وكان منهم واحد يقال له « نوشتكين » ، وكان مسعود يحبه .

وانقضت بضع سنوات ، ولم يعرف أحد قط من يحبه السلطان ؛ لأن كل الأعطية التي كان يعطيها لهم كانت سواء ، حتى انقضى على هذا خمس سنوات .

وذات يوم قال في سُكْره : كل ما أمر به أبي لإياز اكتبوه لنوشتكين ! فعندئذ صار معلومًا أن مقصوده كان « نوشتكين » .

والآن يا بني ، مع أني قصصت عليك هذه القصة ، اعلم أنك لا تعمل بقولي إذا اتفقت لك ، إذ أنني كذلك أقول بلسان الحال[1] .

* * *

(١) الترجمة الحرفية : من قبيل حسب الحال .

(رباعـــى)

« كل آدمى حى ناطق يجب أن يكون مثل عذراً ومثل وامق [1] وكل من ليس كذلك فهو منافق ، وليس بآدمى من يكون غير عاشق » .

* * *

ورغم أنى قلت هذا فلا تعمل ببيتى هذين ، واجتهد أن لا تكون عاشقًا ، فإذا أحببت إنسانًا ، فاحبب شخصًا يستاهل الحب ، ولو أن المعشوق لا يكون كلية بطليموس [2] وأفلاطون [3] ؛ ولكن يجب أن يكون على شىء من المحكمة .

واعرف كذلك أنه لا يكون (يوسف بن يعقوب) - عليهما السلام - ولكن يجب أيضًا أن تكون فيه ملاحة لتنعقل ألسنة بعض الناس ، ويقبلوا عذرك ، فإن الخلق لا يفرغون من أن يعيبوا ويتلمسوا عيوب الناس ، كما قيل لشخص : أفيك عيب ؟

قال : لا !

قالوا : ألك عاتب ؟

قال : كثيرون .

فقالوا : اعلم أنك أكثر الخَلق عيبًا ، وإذا ذهبت ضيفًا فلا تصحب المعشوق معك ، وإذا صحبته فلا تنشغل به أمام الغرباء ، ولا تشغل القلب به ، فإن أحدًا لا يستطيع أن يأكله ، ولا تظن أنه يبدو فى عين كل إنسان مثلما يبدو فى عينك ، كما قال الشاعر :

---

(١) إشارة إلى عذراً ووامق قصة غرامية مشهورة فى الأدب الفارسى .

(٢) حوالى (٤٢٧ - ٣٤٧ ق . م) .

(٣) أفلاطون (٢٠٥ - ٢٧٠ م) .

بيـــت

« الويل لى إذا كنت فى عين الخلائق ، تبدو بهذا الشكل الذى تبدو به فى عينى أنا المسكين » .

* * *

وكما يبدو لعينك أحسن من كل الخلائق ، فقد يبدو لأعين الآخرين أقبح ، ولا تعطه الفاكهة أيضًا فى كل آونة ، ولا تتفقده ، ولا تناده فى كل ساعة ، ولا تسر إليه فى أذُنه ، فإنى أكرر القول فى نفعك وضرك ، وينبغى أن تجتهد حتى لا يأخذ الناس عليك عيبًا .



* العشق عند « سنائى » :

(الطريق إلى الله : القلب والعشق)

* يقول « أبو المجد مجدود بن آدم الغزنوى المعروف بـ (سنائى) – « ٤٧٣/ ٥٣٥ هـ » :

– « إن الطريق الذى يقود إلى الله حقًا هو طريق القلب والعشق » .

« فالعشق يصل إلى كماله بالعشق نفسه ؛ بينما يظل العقل ناقصًا أسير العقل نفسه ، أى أسير الأدلة والبراهين ، والمنطق » .

« والعشق والفناء : وجهان لحقيقة واحدة ، هى مجموع التجربة الصوفية » .

« فالصوفى فى حالة الفناء هو الصوفى الذى استغرقه العشق الإلهى » .

« وبالعشق يحقق الصوفى المعنى الحقيقى لحياته بحصوله على الوحدة مع الله تعالى ، ويوفى بالعهد الذى قطعه أمام الله » .

– وهو مازال فى عالم الذَّرْ – فى يوم : (أَلَسْتُ بِرِبِّكُمْ) ؟ .

« وهذه الوحدة مع الله لا تتضمن حلولاً ، ولا وحدة بالمعنى الذى أخذه مصطلح وحدة الوجود .. ولكنها وحدة تضع الإنسان فى حضور دائم مع الله ، وتجعل منه أداة يتصرف بإلهام وتأييد منه » .

* * *

(العاشق الذى كان يضحك وهو يحتضر)

فى حديثه عن العشق يبدو « سنائى » مدركًا لاستحالة تحريف هذه الظاهرة التى تعتبر جوهر التجربة الصوفية . .

ولذلك . . نراه يورد كتعريف لها بعض العبارات الرشيقة الموحية ، التى تعطى من سحر الإيحاء أكثر مما تمنحه من دقة التعريف :

- « العشق : محبوب يخطف الروح ، يأخذ القلب ، يقطع الرأس ، ويعلن السر ، وهو يقول السر للمقطوع الرأس ؛ لأنه يعلم أن الرأس غير أمين على السر ! وهو الماء الذى يشعل النار ، والنار التى تحرق الماء ، والعشق يكون بدون مشنقة الجسم ، فالطائر العالم يحطم قفصه » ! ..

* * *

والمعزول عن العشق فى رأى الشاعر . . مثل الطائر المنزلى ، لا يستطيع التحليق والارتفاع مع وجود جناحيه ، فَهِمّته أن يأكل الحَبْ ، وقُوّته أن يطير حول المنزل .

والعاشق مثل صائد الدّرْ من أعماق البحر ، بالقياس إلى الملاّح القابع فى السفينة . . وطالب الدّرْ يحصل على رغبته فى البحر المحيط ، ويضع الروح والرأس تحت القدم ، ويدعو إلى التقدم بالرأس إلى سفر الماء ، اقتداءً بظل الإنسان الذى يسبق فيه الرأس القدم عند السير ، هكذا فاطلب الدُرْ ، وإلا فأنت أمام الدُكّان والخرزة الرخيصة (خرزة الحمار) ، ورغيف الخبز .

والغرض ينافي العشق ، فالعاشق برئ من رغبته الخاصة ، وهو ينهض متخلصًا من الروح والجسم ولا يتكلم . . والعشق الكامل تمثله الحكاية التالية :

- رأى شخص جامد القلب عاشقًا كان يضحك فى سعادة وهو يموت ، فقال له : **فى نهاية الأمر ما سبب ضحكك وابتهاجك عند إسلام الروح ؟**

فأجاب العاشق : **عندما يرفع المحبوبون الستار .. يموت العاشقون أمامهم على هذا النحو ..**

ويمضى التعليق على الحكاية مركزًا على فكرة القضاء والجبر فى العشق ، وأنه لا يلتمس التماسًا ، وإنما يُلقى فى القلب إلقاء بلا اختيار ، وأنه فوق العقل ، وفوق مسألة الكُفر والدِّين ، فالعود والصفصاف رمادهما واحد إذا أُحرقا معًا ، وإن يكن دخانهما مختلفًا . . الصفصاف والشجرة المثمرة ، والشجرة التى تُصنع منها السهام - كلها تحيلها النار إلى لون واحد .

* * *

(آدم .. بين العلم ، والعشق)

يستهوى المتصوفة « آدم » الغريب ، العاشق ، التائب ، الحزين ، ولا يستهويهم كثيراً ، « آدم » الآمن ساكن الجنان ، و « سنائى » يتناول قصته بهذه النظرة ، ويعتبر مثلاً أعلى للعشق :

– **« القلب لا يستجيب إلا للغم والحزن ، أما سمعت أن « آدم » أورده عز العلم صوب الجنان ؛ بينما أنزله ذُل العشق إلى مواطن التراب :**

« حين سلك طريق العلم : صار سلطاناً ، وحين أخذ طريق القلب : صار عرياناً ، وعندما رأى جميع هذه الألطاف من الحق سمعت روحه نداء العشق منه » ..

* * *

وفى تعليقه على التمثيل بقصة آدم يعود « سنائى » إلى تأكيد أفضلية العشق على العقل ، فيقول :

– **« إن الذكاء : هو الشيطان ، والوَلَه : « آدم » ، والعشق ليس مرتبطاً بالعقل ، وليست علته الحَسَن والقبيح ، فإن « آدم » بسبب العشق : هبط من الجَنَّة ، ودخل إلى عالم الروح مجرداً وحيداً » ..**

ويضيف فى عبارة شاعرية أخاذة :

– **« اخترت لتشبيه الأمرين طائرين : العقل : ببغاء ، والعشق : مالك الحزين ، وقدم العقل طالبة للنقد الحالى ، وشعلة العشق تهتف : لا أبالى ! وباشق العقل يخطف طائر الصعوة ، أما نسر العشق فيمسك البازى .. ونحن جميعاً فى طريق العشق أطفال ، العاشقون : شراب صافى ، أما نحن : فشوائب الشراب ، وقد تجد من بالغى العقل كثيرين ؛ ولكنك تجد بالغى العشق قليلين » !! ..**

* * *

(فَقَدَ قلبه .. بسبب عشقه)

والعشق الكامل يقوم على الانجذاب ، وفقدان الشعور بالنفس والأنا ، ويمثل وقاء للعاشق نفسه ضد الوساوس والنزعات التى تأتى من العقل بالذات ، عندما يستيقظ ، واستيقاظ العقل بناء على هذا التصور يمثل خطرًا داهمًا على العشق ، ويدل على بداية اضمحلاله ، يصور هذا المعنى فيورد الحكاية الآتية :

- « قرأت أنه كان فى بغداد رجل فَقَد قلبه (بسبب العشق) . كان الرجل صادقًا فى طريق العشق ، حين صار فجأة عاشقًا لامرأة .

« وكان مسكن الرجل على نهر المعلى ، والمرأة بالكوخ ، يقوم بينهما ماء دجلة حاجزًا .

« وفى كل ليلة كان الرجل - يدافع من نار قلبه - يسلك لاتخاذ طريق دجلة ، كان يعبره ، ويصل إلى بيت المرأة غافلاً عن الروح والجسم .

« كانت كأس العشق قد أثملته ، وجرأته الشديدة جعلته يجيد السباحة..

« ولما مضت على هذا الحال مدة .. هدأت نار عشقه قليلاً .. فصار يرى نفسه فى هذا الأمر .. وصار يحوم حول الأسباب والدوافع (لحبه) .

« وكان هناك خال على خد المرأة الذى يشبه القمر ، نظر إليه الرجل وقال : ما هذا الخال ياذات الوجه القمرى ؟ حدثينى عن أحوال خالك !

« قالت له المرأة : لا تنزل إلى الماء هذه الليلة ، حافظ على روحك . إن الخال على خدى مُذْ ولدتنى أمى ، ولكن نار عشقك خبا أوارها ومادمت رأيت الخال على وجهى ، فقد وصلت إلى درجة الشبع من حُسْنى ..

« ولم يستمع الرجل ، ونزل إلى نهر دجلة ، وأضاع بالتهور حياته ، غرق وأسلم الروح ، فى الماء ، هلَك وبَاد منه الجسم فى الماء » .

والفكرة فى الحكاية : أن العاشق الثمل بالعشق يغفل عن الأعراض المادية التى تحيط به ولا يشعر بها ، فإذا صحا من سُكْره اطلع على حاصل الطين ، وحينئذ يأتيه الخطر من عقله .

وحكاية العاشق الذى أبصر الخال فى وجه محبوبه ترددت فى أكثر من كتاب فى الأدب الفارسى ، « وسنائى » نفسه أعاد نَظْمها بلا تصرف فى تنويه الآخر (عشقنامه) ، كما أشار إليها « أحمد الغزالى »[1] فى كتابه (سوانح) والميبدى[2] فى (كشف الأسرار) .

* * *

---

(١) « ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م » . .

(٢) قاضمير حسن ، الميبدى (٩٠٤ هـ)

(المثال الكامل للعشق)

والمثال الكامل للعشق ، يقدمه المجنون ، والشاعر يحكى قصته على النحو التالى :

- « هل سمعت أنه فى بلاد العرب كان « المجنون » مفتونًا بُحسْن « ليلى » أعلن حب « ليلى » ، وجعل من المحنة سلواه .. ترك أسرته وموطنه ، ورأى العناء راحة وسرورًا .. اتخذ مسكنًا له : الجبل والصحراء ، وصار غافلاً عن حاجة الجسم .. ولما لم يحصل على طعام لعدة أيام - نصب للصيد شرَكًا على الطريق .

« وحدث أن وقع فى الشرك ظبية ، وتحقق له مقصده فجأة ؛ ولكن عندما رأى تلك الظبية الضعيفة وأبصر عينها ووجهها ، أسرع بإطلاقها من الشرَك وقال : هذا الذى جميع العاشقين عبيده - هذا الصيد فى الشرَك الذى نصبته - تشبه عينه عين من أحب .. وفى طريق العشق ، ليست القسوة جائزة ، و (وجود) شبيه الحبيب فى البلاء ليس جائزًا ، عين « ليلى » وعين الأسير فى القيد - تقول إنهما تشبه إحداهما الأخرى ؛ لهذا صار حراما عليّ ، وأطلقته من البلاء والمحنة » .

* * *

ويرى الشاعر فى صنيع المجنون معنى العشق ؛ لأن القول اقترن فيه بالعمل ، « أنا غلام الذى سلم له فى طريق العشق لقب سلطان العشق ، تسلك طريق الدعوى بلا معنى ، أخاف ألا تقبل منك هذه الدعوى . اشرع فى العمل ، واقصر القول ، اقرن العمل بالقول ، فأنت مُدّع للمحبة مع المعبود ، ثم باحث عن اللذة وطالب للمقصود » .

(العشق الإلهى)

أطال « العطار »[1] الحديث فى (منطق الطير) عن العشق ، إذ أن العشق هو القوة الخفية التى تدفع السالك إلى المضى قُدُمًا فى الطريق ، آملاً فى لقاء المحبوب الأزلى .

كما اعتبر « العطار » العشق أسمى مكانة من العقل، حيث يتسم العقل بالقصور أمام العشق :

*** – « العشق : نار .. أما العقل فدُخان ، وما أن أقبل العشق حتى ولّى العقل الفرار .. فالعشق ليس وليد العقل ..**

والعشق يسمو بالعاشق حتى يجعله يفنى فى ذات المعشوق .

– « عليك بإفناء نفسك فى العشق تمامًا حتى تصبح فى الضعف كالشعرة دومًا ، وما أن تصبح كشعرة ضعيفة ، فأليق مكان بك حيث طرة المعشوق ، وكل من يصبح شعرة فى محرابه ، فإنه يكون شعرة من شعره بلا ريب .

والعشق نوعان : عشق دائم ، وهو عشق المعرفة . . وعشق زائل ، وهو عشق الصورة الذى يزول بزوال الصورة .

و « عشق المعرفة هو : عشق الله ، وهو الحبيب الأبدى الدائم .

« أما عشق الصورة : فهو عشق الماديات الفانية .

وقد تكلم العطار كثيراً عن عشق الصورة وعدم جدواه ، وضرورة البحث عن حبيب لا يفنى ولا يزول ، فقد قال :

– « عشق الصورة ليس هو عشق المعرفة ، إنما هو اللعب بالشهوة .

---

(١) فريد الدين العطار النيسابورى (ت ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م) .

– « ومن يعشق عالم الغيب ، فهذا هو العشق الحق ، إذ أنه خَلىّ من كل عيب .

– « والعاشق يفضل المعشوق على كل ما عداه .

* وهـذه رابعة تناجى اللّه وتطلبه لذاته ، وهى راغبة عن الجنة والنار ، كما أن عشقها جعلها مشغولة بالله عما سواه .

– ولا يجب على العاشق أن يغمض له جفن ، ويتوقف عن ممارسة عشقه طوال الليل والنهار ، فقد مَرَّ معشوق بعاشقه فوجده نائمًا ، فكتب إليه وريْقة جاء فيها :

– « ... لتخجل إن كنت عاشقًا حقًا ، فأى شأن للنوم بعين العاشق ، إذا نام العاشق ، فلا يكون ذلك إلا فى الكفن ... إذا كنت بالعشق جاهلاً ، فلتهنأ بالنوم لأنك لست للعشق أهلاً ... » .

وجزاء من لا يحسن العشق الإلهى أن يطرده اللّه سبحانه وتعالى ، ويحرمه من عشقه ؛ لأنه شُغل بأى شاغل دنيوى ، والدليل ماثل فى قصة ذلك « العابد الذى عَبد اللّه أربعمائة سَنة ، ثم شُغل بُرهة بتغريد طائر فوق شجرة ببستان داره ، فكان جزاؤه أن تخلى اللّه عن عشقه » !! . .



(كمـال العشـق)

* عُذْر البلبل :

* روى « فريد الدين العطار النيسابورى » (ت ١٢٣٠م) قائلاً :

- « أقبل البلبل الولهـان نشـوان ثمـلاً ، ومن كـمـال العشق كـان فى حالة لا هى صحـو . . ولا عدم ، وكـانت صيـحاته مـفـعـمـة بالمعان ، وخلف كل معنى كـمن عـالم من الأسـرار، فـمـا أن رفع صـوته بأسـرار المعانى ، حتى أُلجم ألسنة الطير جميعها . .

« قـال : ختـمت علىَّ أسـرار العـشق ، لذا أمـضى ليلى كله ألـهج بالعـشـق ، نواح النـاى : بعض حـديثى ، ورنين القـيـثـارة الخـفـيض : آهاتى ، البسـاتين : غاصـة بصيـحاتى ، وإلى قلوب العشـاق : سَرَتْ خفقات قلبى ، فى كل زمان : أردد سراً جديداً ، وفى كل آونة : أصدر لحنًا جديدًا . .

« مـا أن أصـاب العـشق روحى بجـبـروته ، حـتى أصبـحت بحـراً مـضـطرب الأمـواج ، وكل من رأى اضـطرابى فَقَدَ رشـــده ، ولو كـان فى غاية الصحو أصبح ثملاً ، وإن أعدم رؤية الخليل عامًا طويلاً ، ألُذْ بالصمت غير مُبيح سرِّى لأحد .

« ولما كان معشوقى فى بداية الربيع ينثر على الدنيا أريج عطره ، فَبِه تكتمل سعادة قلبى ، وبطلعته أتخلص من اضطرابى .

« وإن يعاود معشوقى الاحتجاب ، ويصبح البلبل المضطرب قليل الكلام ؛ لذا فـإن أحـدًا لا يدرك أسـرارى ، أمـا الوردة فـهى المدركـة أسرارى بلا ريب .

« وهكذا أصبح فى عشق الوردة مستغرقًا ، حتى فنيت عن نفسى فناء مطلقًا ، وكفانى ما يكمن برأسى من عشق الوردة ، وكفانى أن الوردة الجميلة معشوقتى .

« وليس للبلبل طاقة لإدراك (السيمرغ) ، حيث يكفيه عشق الوردة » . .

« إذا كانت الوردة العديدة الوريقات محبوبتى ، فأى بأس أن يكون الفقر صفتى ؟ وإن تتفتّح برعمة ممزقة أستارها ، فإنها تضحك فى وجهى وتتبسم لى وحدى ؛ فكيف يستطيع البلبل التخلى ، ولو لليلة واحدة ، عن عشق تلك الوردة الباسمة » ؟

« **قال له الهدهد** : يا من تعلقت بالصورة ، لا تتباه أكثر من ذلك بعشق الجميلة . كم أصابك عشق الوردة بالأشواك ، وسيطر عليك حتى أصبح كل شغلك ، وإن كانت الوردة صاحبة جمال رائع ، فسرعان ما يزول حُسنها فى مدى أسبوع ، وعشق شىء مآله الزوال ، يصيب العقلاء بالضجر والملال ، وإذا كانت بسمة الوردة قد شاقتك ، فمع البكاء والنواح طوال الليل والنهار تركتك ، فتخل عن الوردة ؛ لأنها فى كل ربيع تسخر منك ، أفلا تخجل من هذا المسلك » ؟

* * *

ويقول صاحب (منطق الطير) :

- « متى كان العشق مستساغًا من سيىء الطوية ؟ أيها المساكين ، إلامَ هذا الجهل ؟ حقًا ، لا يستقيم العشق وسوء النية ، كل من له فى طريق العشق عين مبصرة ، قد أقبل فرحًا . . وللروح ناثرًا .

* * *

(العشق أعلى مكانة)

* إن العشق أعلى مكانة من الإيمان والكفر ، وأى شأن للعشق مع الكفر والإيمان ؟ وأى شأن للعاشقين مع الجسد والروح ؟ إن العاشق يشعل النار فى كل بيدر ، ويوضع المنشار على رأسه ، وهو لائذ بالصمت ، لابد للعشق من الألم والغصة ، ولابد للعشق من المشاكل والصعوبات ، فيا أيها الساقى املأ الكأس بدم الكبد ، فإن عدمْته ، فلتستعره من آلامنا ، إذ لابد للعشق من آلام تمزق الحُجُبْ ، فمزق حجاب الروح أحيانًا وخطه أحيانًا ، وذَرَّةُ عشق تفوق جميع الآفاق ، وذَرَّةٌ وذَرَّةُ ألم تفضل جميع العشاق ، والعشق لُبّ الكائنات على الدوام ؛ ولكن لا يكون العشق تامًا بلا إيلام .

« كل من له قَدَم في العشق راسخة ، قد تخطى الكُفر والإسلام معًا !! ..

« العشق يفتح لك بابًا نحو الفقر ، والفقر يظهر لك طريقًا صوب الكُفر ، وللعشق قرابة بكفرك ، وكُفرك هو لُب فقرك ، وإن ضاع منك الكُفر والإيمان ، فمعنى هذا أن جسدك قد فَنِى وأن روحك قد فاضت ، بعد ذلك تكون خليقًا بهذا العمل ، إذ لابد لهذه الأسرار من رجل ، فَسِرْ فى الطريق كالرجال ، ولا تخف ، وتخلّ عن الكُفر والإيمان ، ولا تخف كثيرًا ما يعتريك الخوف ، فتشجع وتخل عن عالم الأطفال ، فكن كأشجع الرجال أمام الأعمال، فإن اعترضت طريقك فجأة مئات العقبات، فلا خوف من التعثر فى الطريق » !! .

* * *

(إذا كان العشق هكذا)

* إذا كان العشق مبعث سوء سمعة لأحد ، فهو أفضل من حرفتى الكنَّاس والحجَّام . وكثيرون من الخَلْق قُطَّاع طريق ، يجرون وراء هذه الجيفة الدنيوية ، ولتعتقد أن العشق أقل من السرقة ، حيث أنه أقل غمًا بالنسبة لك من السرقة ، وكيف تجعل قلبك من هذا العشق بحراً ، إن كنت بالسرقة تعشق الكل ؟

وإن يَقُلْ شخص : إن هذا العشق غرور ، فكيف تصل هناك ولم يدركه أحد قط ؟

وإن أقدم روحى فى غرور هذا العشق ، يكن هذا أفضل من ربط القلب بالمنزل والمتجر . .

ولقد رأينا كل هذا وبه سمعنا ؛ ولكن لم نتخل لحظة واحدة عن أنفسنا .

* * *

(إذا سكن العشق)

* وإذا سكن العشق قلبًا ، سارع القلب بالسيطرة على روح ذلك الشخص ، والرجل الذى تسيطر عليه هذه الآلام ، يخرج مضطربًا من بين الحجب .

ومن لا ينْجَ لحظة من نفسه ، تقتله نفسه ، ثم تطالب بالدية ، وإن تعطه ماء ، فما أعطته إلا الأذى والعِلّة ، وإن تقدم إليه خبزًا ، فلن يكون خبزًا معجونًا إلا بالدم .

أما من كان فى الضعف أكثر عجزًا من النملة ، أمدّه العشق كل لحظة بقوة هائلة ، وإن يسقط إنسان فى بحر الخطر ، والهمّ . . فكيف يستطيع أن يأكل كسرة خبز دون غمّ ؟

* * *

(فَـــرْط العشـــق)

كان هناك شيخ يبكى من فرط العشق ، وكان كالنار لا يقر له قرار من شدة المحبة ، وقد احترقت روحه من حرارة العشق ، كما انعقد لسانه من حرقة الروح ، وسرت النار من روحه إلى قلبه ، فأصبح أمره غاية فى الشدة ، وأخذ يمشي فى الطريق لا يقرُّ له قرار ، وظل ينتحب ، وينطق بهذه الأقوال :

- « لقد أحرقتُ الروح والقلب بنار وقاحتى ، وطالما بكيت حتى نضبت مياه مدامعى » .

فجاءه صوت الهاتف قائلاً : لا تتحدث هكذا ، وكُف عن التباهى ، ولِمَ ألقيت إليه بكل قول جزاف ؟

قال : عندما أحادث أحدًا ، فإنه يحادثنى بلا شك ؛ ولكن طالما كان لمن مثلى هذا اللّب والقشور ، فكيف أستطيع عشق من هو مثله ؟ ماذا فعلت أنا ؟ إن كل شىء قد فعله هو ، لقد أصبح القلب كالدم بسببه ، فهو من أهاج القلب وأدماه وحده ! .

إذا كان قد لاطفك مرة ، فلا تكن أسير الكِبْر ؛ بل كن حذراً . من تكون حتى تستطيع وأنت فى هذه البئر السحَيقة ، أن تخرج قدمك ولو للحظة من تحت لحافك ؟

وإن كان يعشقك أيها الغلام ، فهو يمارس العشق مع صنعه على الدوام ، أما أنت فلا شىء على الإطلاق ، ولا سند لك ، فكُف عن هذا ، ودع الصُّنع للصانع ، فإن بدا لك وجود فى الوسط ، فإنك تكون خارج نطاق الروح ، وكذا بعيدًا عن الإيمان ! .

***

(العاشق الباكى)

كان أحد العاشقين يبكى ساعة موته ، فسُئل : لِمَ هذا البكاء ؟

قال : إننى أبكى بكاء سحابة الربيع ، إذ يجب الإحساس بالألم فى هذه اللحظة ، كما يجوز لى النواح الآن ، إذ كيف يموت قلبى وهو متعلق به ؟

قال له أحد جلسائه : إذا كان قلبك متعلقًا به ، فإن تَمُتْ ، كان الموت فضلاً وخيرًا .

قال العاشق : كيف يموت كل من تعلق قلبه بالله ؟ وكيف يكون الموت من نصيبه ؟ وإذا كان قلبى فى وصال دائم معه ، فإن موتى يكون غاية فى المحال .

إن سررت بهذا السر لحظة ، فليس لهذا الكنز مثيل فى هذه الحياة ، وكل من تملَّكه السرور من وجوده ، امحى من الوجود وتحرر منه ؛ ولكن ليتملكك السرور من حبيبك على الدوام حتى لا تتساوى مع الطين فى داخلك ! .

***

(عيـون العاشـقين)

كان هناك رجل شجاع القلب شديد البأس عشق امرأة طوال خمس سنوات ، وكان على عين تلك المرأة الفاتنة الشبيهة بالصَّنم غشاوة بيضاء ، ومع أن الرجل قد أكثر من النظر إليها ، إلا أنه لم يَرَ تلك الغشاوة على عينها ؛ لأن العاشق إذا كان ولهًا فى عشقه ، كيف يتأتى له أن يُدرك عيب معشوقه ؟

وبعد فترة ، أصاب الرجل فى عشقه الفتور ، ووجد الدواء ، وضعُفَ عشق تلك المرأة فى قلبه ، وهان أمرها على نفسه ، وهنا رأى الرجل عيب عين المعشوقة ، فقال : متى بدت هذه الغشاوة ؟

قالت له : فى تلك الساعة التى قَلَّ فيها عشقك ، أصاب العيب عينى فى التَّوّ والحال ، وما أن أصاب النقصان عشقك ، حتى بدا العيب فى عينى ، ولقد فعلت ذلك لمَا سيطر على قلبك من اضطراب ، فلتنظر إلى عيب واحد لك ، يا أعمىَ القلب ! .

ما أكثر ما بحثت عن عيوب الآخرين ، فلتبحث ذات مَرَّة عن عيوبك أولاً ، وما دام عيبك عليك ثقيلاً ، فليس لك أن تهتم بعيوب الآخرين ! .

* * *

(وادى العشــق)

بعد ذلك يتضح وادى العشق ، ومن يصل هناك يغرق فى الحُرقة ، فلا تجعل يا إلهى أى فرد فى هذا الوادى بلا حُرقة ، ولا تجعل عيش من لا يتردَّى فى الحُرقة سعيداً مسروراً .

فالعاشق من يكون فى نار وحُرقة ، كما يكون مُتَّقِدُ القلب ملتهبًا ثائراً .

العاشق من لا يفكر لحظة فى العاقبة ، إنما يكون غارقا فى النار كَبَرْق الدنيا ، وفى لحظة لا يعرف الكُفر ولا الدِّين ، كما لا يعرف ذرة من شك أو يقين ، الخير والشر متساويان فى طريقه ، فإذا جاء العشق نفسه ، فلا وجود لهذا أو ذاك .

يا من تكترث ، إن هذا الكلام ليس لك ، فأنت مرتد ، وهذا الذوق لَمْ يتوفر لروحك ، فكل من يتطهر ، يطرح المادة جانبًا ، ثم يقامر بروحه فى وصال الحبيب ، لقد وعد الآخرون بالغد ، أم هو فيأخذ حسابه فى التو والحال ، وطالما لم يحرق نفسه دفعة واحدة ، فكيف يستطيع التخلص من الآلام والهموم ؟ وطالما لم يحرق الجواهر فى وجوده ، فكيف يمكن أن يضيء قلبه فرحًا وسروراً . إنه يختلج دائما فى حرقة وانصهار ، حتى يعود ادراكه مَرة أخرى ، كالسمكة إذا ما انتزعت من الماء إلى اليابسة ، تملكها الاضطراب ، لعلها تلقى فى البحر ثانية .

العشق : نار هناك ، أما العقل : فدُخان ، فما إن يُقْبل العشق حتى يَفِر العقل مسرعًا ، والعقل ليس أستاذاً فى مجال العشق ، وليس العشق

وليـد العـقل ، وحـتى لو منحت حق الاطلاع على عـالـم الغـيب ، فلن تدرك من أين ينبت هناك أصل العـشق ، وكل ورقـة فى عـالـم العـشق ، ستطرح رأسها على كتف أختها ثَملَة بالعشق ، وإن مُنحت فرصة لاطلاع على الغيب مَرة أخرى ، أصبحتَ ذَرَّات الدنيا قرينة لك .

إن تنظــر إلى الأمــور بعـين العقـل ، فسـتـرى العشـــق لا أول لـه ولا آخـر ، وهـو ضـرورة لـكل حـصـيـف ، كـمـا أن العـشق ضـرورة لكل حُر ؛ ولكنك لست حصيفًا ولا عاشقًا . . وإنما أنت ميت ، فكيف تكون للعشق لائقًا ؟ ولابد من رجل حى القلب لهذا الطريق ، حتى يقدم مائة روح نثارًا فى كل لحظة .

* * *

(عشـــق المجنـــون)

لم يكن أهل ليلى يسمـحـون للمـجنون العـاشق ، بالحضـور إلى قـبيلتـهم ولو للحظة ، وتصـادف أن كـان أحـد الرعـاة يجلس فى تلك الصحراء ، فأخذ المجنون الثّمل منه فَرو خروف ، ثم انحنى وألقى الفرو على رأسه ، فبدأ شبيهًا بالخَروف ، وقال للحارس : أستحلفك بالله ، أن تتركنى أسير وسط القطيع ، ثم سُقْ القطيع ، وأنا صَوْب « ليلى » ، حتى أجد - ذات لحظة - ريح « ليلى » ، وإننى أتخفى عن الغير تحت هذا الفرو ؛ لكى أنعم بالحبيب ساعة .

إن يصبك ألم مثل هذا ولو لحظة ، تكن رجلاً وَنِعْم الرجُل ، وللأسف لم تُصبِك آلام الرجال ، إذ لابد من الألم للرجل ، أما أنت فلاعِلْم لك به .

وأخيرًا تخفى المجنون تحت الفراء ، وسار إلى محلة المحبوبة مع القطيع ، سار غاية فى السرور بعد أن تملكه الاضطراب أول الأمر ، سار وقد فقد عقله واتزانه نشوة فى نهاية الأمر . . وما أن هاج عشقه ، حتى تَصَبّب عَرَقَه ، فـأخذه الراعى وحمله إلى الصحراء ، وألقى الماء على وجه ذلك الثّملْ النشوان ، حتى ينطفىء أوار تلك النار بفعل الماء .

بعد ذلك ، جالس المجنون الشمل ذات يوم ، جمعًا من الأهل بالصحراء ، فقال أحد أقربائه : لقد ظللت عاريًا فترة طويلة ، ياعالى الهمة . . أى رداء تفضله ، آتيك به فى التو إن تطلبه .

قال (المجنون) : ليس كل رداء يليق بالحـبيب ، ولا رداء عندى أفضل من الفرو . إننى أطلب ردائى من ذلك الخروف ، كما أحرق البخور من أجل عين السوء ؛ وعلى الرغم من أن المجنون جدير به أن

يرتدى الأطلس والحرير ، إلا أنه يطلب أى رداء تفضله ليلى ، لقد رأيت وجه الحبيب وأنا فى هذا الفرو ، فكيف أتخذ رداء غير هذا الفرو ؟ لقد أدرك القلب سِرّ الحبيب عن طريق الفرو ، فليكن لى رداء إن أفقد العقل .

العشق ضرورة حتى **يحررك من عقلك ، لم يبدل صفاتك ويمحوها ، وأقل شيء فى محو الصفات ، هو هِبَةُ الروح وترك الترهات فاسلك الطريق إن كنت ذا همة ، إذ لا مجال فيه للعب .. بل كله مخاطرة .**

* * *

(يقتل عشيقته .. خوفًا عليها من الموت)

عَشِقَ شخص يتّسم بالهمة والكمال ، فتاة غاية فى الجمال ، وقضاء وقدرًا دَهَم المرض قلبَ المعشوقة ، فأصبحت نحيلة كعود الزعفران ، مُصْفَرّة الوجه ، وأصبح النهار المشرق مظلمًا على قلبها ، وجاءها الموت من بعيد ، واقترب منها .

خُبِّر العاشق بذلك ، فهرول مسرعًا وبيده سكين ، وقال : أريد الحبيبة ، حتى لا تموت المعشوقة بفعل الموت نفسه .

فقال لها الخلق : إنك غاية فى الاضطراب ، وأى حكمة تراها فى هذا القتل ؟ لا تُسفك دمها ، وكُف يدك عن هذا القتل ؛ لأنها ستموت ميتة طبيعية هذه الساعة ، فإن لم تَمُتْ ، فليكن القتل ، ولا يقطع رأس الميت إلا جاهل ! .

قال : إن أُقدم على قتل المعشوقة بيدى ، فسأقتل قصاصًا لها ، وعندما تقوم الساعة ، فأمام الجميع يحرقوننى كالشمع ، فإما أن أقتل اليوم بسبب تعلقى بها ، وإما أن أحرق غدًا بسببها ، فكل رغبتى هنا أو هناك أن يكون اسمى المحروق ، أو المقتول بسببها .

يتقدم العشاق إلى الطريق مُضَحّين بأرواحهم ، يتقدمون وقد قصروا أيديهم عن العالم ، وتحملوا وسط ذلك آلام الروح ، كما خلّصوا القلب من الدنيا كلية ، وما أن خلصوا أرواحهم من الكل ، حتى أصبحوا فى خلوة مع الحبيب .

* * *

(اضطراب العاشق)

أُصيب عاشق بالاضطراب من فَرْط العشق ، فنام على التراب في ذلّة وانكسار ، ثم مَرّ به معشوقه وهو في مرقده هذا ، فرآه نائمًا وقد غابَ عن وعيه ، فكتب وُرَيْقَة تليق به ورَبَطَها على كُم عاشقه ، وما أن استيقظ من نومه ، وقرأ الوريقة ، حتى سيطر الحزن عليه ، وكان المكتوب يقول :

- « أيها الرجل الخامل ، إن كنت تاجرًا للفضة ، فانهض ، واسْع .

و « إن كنت زاهدًا ، فتهجد بالليل ، وعش في تضرع حتى النهار ، وكُن لله عابدًا .

و « إن كنت عاشقًا ، فليعتريك الخجل ، فمتى جاز لعين العاشق أن تنام ؟ فالعاشق كالريح بالنهار ، وفي الليل يبدو في حُرقته كالقمر .

و « لما كنت ياعديم الضياء لا هذا ولاذاك ، فقلل من التفاخر الكاذب بعشقنا .

« فإذا نام العاشق ففي الكَفَنْ ، أما أنت فعاشق لنفسك ، وإن كنت بالعشق جاهلاً ، فأهنأ بالنوم لأنك لست العشق أهلاً .

* * *

(العشق : قرين الحراسة)

كان أحد الحراس عاشقًا وَلِهاً ، لا ينام الليل ، ولا يقر له قرار بالنهار ، فقال صديق حميم للعاشق المسهد : يامن لا تنام ، لتنم فى النهاية لحظة من الليل . .

فقال (العاشق) : لقد أصبح العشق قرين الحراسة ، فكيف ينام من له هذان الأمران ؟ ومتى كان النوم بالحارس لائقًا ، وبخاصة إذا كان هذا الحارس عاشقًا ؟ فإن كان الإنسان يخاطر أبدًا ، فكثيرًا ما يدفع كل أمر الإنسان إلى أمر آخر وكيف أستطيع النوم لحظة ، وأنا لا أستطيع استعارة النوم من أحد ؟

فى كل ليلة . . كان العشق يعقد للحارس امتحانًا ، حيث يجعله مشغولاً بالحراسة ، فكان يمضى هنا وهناك ضاربًا بالعصا ، وأحيانًا يضرب وجهه ورأسه حزنًا ، وإذا غدا لحظة هذا المسهد الجائع ، رأى العشق فى منامه ، فكان الخلق جميعًا فى سُبَات طوال الليل ، أما هو . . فأسير النواح والأنين .

فقال له حبيبه : يامن قضيت الليل كله فى حُرقة واضطراب ، ولِمَ لَمْ تَنَمْ لحظة ؟

قال : ليس للحارس أن ينام ، ولا رواء لوجه العاشق إلا بالدمع ، فطبيعة الحارس عدم النوم ، وطبيعة العاشق شحوب الوجه ، وإذا كان الدمع ينهمر من العين وهى موضع النوم ، فكيف يمكن لها أن تكتحل بالنــوم ؟ . .

لقـد اتفق العشـق والحـراسـة ، وسـلبا النـوم من عينيه ، وألقياه في البحـر .

وقد خاطب العاشق الحارس بكلام عَذْب ، فوقع أمر سُهْده موقعًا حَسَنًا في عقله ، فمن يُسَرّ للسّهاد ويُطرب ، لا يمكن للنوم أن يسيطر على رأسه ولبه .

فـلا تنم أيهـا الرجل إن كنت طالبًا ، أو لينعم عليك الله بالنوم الهادئ ، إن كنت بالقول متشدقًا ، وكن على الدوام حارسًا في محراب القلب ، فما أكثر اللصوص المتربصين بالقلب ، وقد انتزع القلب الطريق من أيدي اللصوص ، فإذا تم لك التحلي بصفة الحراسة ، فما أسرع ظهور العشق في المعرفة ، ففي هذا البحر المليء بالدم ، ستنبثق المعرفة للرجل من عدم النوم ، وكل من يتحمل كثرة السهاد ، سيمضي إلى الحضرة متيقظ القلب .

فقلل من النوم وكن وَفِي القلب ، إذا كنت من السهاد يقظ القلب ، ويجب القول أنه حينما يغرق جسدك ، فلن تخلصك الاستغاثة من الغـرق ! .

لقد مضى العشاق السابقون ، ورقدوا جميعًا سُكارى بالمحبة ، فاضرب رأسك ، حيث استعذب السابقون كل ما وجب فعله ، ومن بدا له ذوق العشق ، فسرعان ما وجد مفتاح العالمين، فإن توجد امرأة في طريق العشق، تصبح رجلاً مهيبًا ، وإن يوجد رجل في هذا الطريق ، يصبح بحرًا عميقًا .

* * *

(آلام العشـــق)

قالت « العباسـة » [1] لأحـد الرجـال : « يارجـل العشق ، ما أنت إلا ذرّة على من يشرق عليه ألم العشق ، فإن كان رجلاً تنجب المرأة منه ، وإذا كان امرأة ، فحسبها إنها تنجب الرجل ! .

« لقـد علمت أن المرأة من نسل آدم ، وألـم تعلـم أن الرجل من نسل مريم ؟ وإذا لم يظهر ما يجب أن يكون تامًا ، فإن الأمر لا يمكن أن يتضح لك تمامًا ، وعندما يتضح المُلك ، ويتم تحصيله لك ، فسيتم كل ما يصبح حاصلاً فى قلبك ، واعلم أن هذا هو المُلك ، وتلك هى السعادة .

« واعـتبـر أن ذرة من هذا العـالم ، مـاهى إلا قَبَسٌ من الدّين ، وإن تقنع بملك هذه الدنيا ، فستظل ضائعًا إلى الأبد ، أما السلطنة الدائمة ففى المعرفة . . فاجتهد حتى تحصل هذه الصفة .

« وكل من يكون ثمـلاً بعالـم العرفـان ، يكون بالنسبـة لخلق الدنيـا جميعًا بمثابة السلطان ، ويصبح مُلك العالم مِلكًا له ، وتصبح الأفلاك التسعة فَلَكًا فى بحره .

« وإن يدرك ملوك الأرض طعم جرعـة واحـدة من ذلك البحـر اللانهـائى ، فإنهـم يجلسون جميعًا فى مأتم ، لمَا اعتراهـم من ألـم ، وما رأى بعضهم وجوه بعض من شدة هذا الألم » .

* * *

(١) هى « العباسة بنت المهدى » أخت « الرشيد » توفيت عام (١٨٢ هـ) بالرقة .

(امتزاج العاشق والمعشوق)

ما إن وقع أحد المعشوقين قضاءً وقدراً فى الماء ، حتى أسرع عاشقه وألقى بنفسه فى الماء ، وعندما اقترب كل منهما من الآخر ، سأل المعشوق العاشق قائلاً : أيها الجاهل إذا كنت قد سقطت أنا فى هذا الماء الجارى ، فَلِمَ ألقيت بنفسك فى لُجّته ؟

فقال : ألقيت بنفسى فى الماء ، لأننى لم أعرف نفسى من نفسك ، فقد مضى وقت بلا ريب حتى أصبحت أنا أنت ، وأنت أنا ، وأصبحنا واحداً ، فهل أنت أنا ، أم أنا أنت ؟ وإلامَ كانت الثنائية ؟ فإما أننى أنت ، أو أنت أنا ، أو أنك انت أنت ، عندما تكون أنت أنا ، وأنا أنت على الدوام ، يكون جسدانا واحداً والسلام ، وإذا كانت الثنائية بيننا ، فالشّرْكُ قد أصابك ، وإذا انمحت عنا الثنائية ، فالتوحيد قد أدركك .

« أفن نفسك فى الله ، فهذا هو التوحيد ، وأفن الفناء نفسه ، فهذا هو التفريد » .

* * *

(عِشْقُ بنت المَلِك لغلام السلطان)

مَلكٌ كانت الآفاق تحت إمرته ، كانت لديه فتاة جميلة كالقمر تعيش فى بلاطَه ، كانت كملاك رائع الجمال فى الحُسْن ، أو كالربيع والسرو فى الملاحة والحسن ، وكم جُرحت مئات القلوب بطرتها ، فكل شعرة منها عرْق ترتبط به روح ، ووجهًا يبدو كالفردوس ، كما يبدو حاجبها وكأنه اَلقوس ، ولما كانت السهام تنطلق من هذا القوس ، فقد أقبل قاب قوسين مثنيًا عليها ، أما عينها الشبيهة بالنرجسة الثملة المحاطة بأهداب شوكية ، فقد أرْدَت الكثيرين من أهل الحُجة والعقل ، ووجهها الشبيه بالعذراء هذه ، فى جَمال شمس الفلك ؛ بل إنه يفوق فى الحُسن بدر الفلك ، ودُرّها وياقوتها وهما قُوتُ الروح ، قد جعلا روح القدس فى دهشة على الدوام ، وإذا تبسمت شفتاها ، مات ماء الحياة صاديًا ، وطلب الإحسان والإنعام من شفتيها ، وكل من أدام النظر إلى ذقنها ، سقط منكس الرأس فى قعر نونها ، وكل من أصبح أسير وجهها القمرى ، سرعان ما تردى فى نونها بلا رسن .

أخيراً .. مثَلَ أمام السلطان غلام فى جمال البدر ، ليتولى الخدمة ، وما كان يتمتع به هذا الغلام من الجمال ، قد أصاب الشمس والقمر بالمحاق والزوال ؛ وفى بسيط عالمه لا قرين له ، وفى الحسن الفتان لا مثيل له ، ومئات الألوف من الخلق فى السوق والمحلة ، قد بهرهم ذلك الوجه المنير كالشمس .

وقضاء وقدراً رأت تلك الفتاة ذات يوم وجه غلام السلطان ، ففقدت السيطرة على قلبها ، وغاصت فى الأحزان ، وتوارى عقلها

وراء الحُجُب ، لقد ذهب العقل ، واشتد بها العشق ، وأصيبت روحها بالمرارة والألم ، وتملكها التفكر والتدبر وقتًا من الزمن ، وفقدت فى النهاية الراحة والاستقرار ، وذابت شوقًا كما احترقت بألم الفراق ، وغص قلبها بالألم بسبب الذوبان والحرقة والاشتياق ، وكان لها عشر مطربات من الجوارى الحسان ، وكُن على مرتبة عالية فى ترديد الأغانى ، فكُنَّ فى العزف كالبلبل الصداح ، ولحنهن الدواودى كان يسعد الأرواح ، فشرحت لهن حالها فى التو والحال ، وأقرت بفناء الاسم والشهرة والروح ، فكل من يتضح له عشق الأحبة ، كيف تستطيع روحه الاستقرار فى موضوعها ، وقالت :

– « **إن أفصح للغلام عن عشقى ، يكن خطأ كبيرًا ؛ لأن هذا بعيد عن الصواب ، كما أن الحشمة تصيبنى بالكثير من المضار ، وأنّى لهذا الغلام أن يصل من مثلى ؟ وإن لم أفصح عن قصتى ، أمُتْ خلف الحجب متألمة متأوهة ، لقد قرأت زهاء مائة كتاب أملاً فى الصبر . فماذا أفعل ؟ لقد نَفَــذَ صبرى كما أصبحت عاجزة ، وما أبغيه من سروى القد ، أدرك أنه لا علم له به ، فإن يتم تحقيق مقصودى هذا ،فإن أمر روحى يكون وفق مـرادى** » .

عندما سمعت المطربات هذا القول ، قُلن لها : « **لا تحزنى ! بالليل نحضره خفية أمامك ، ولن يكون لديه أى خبر عن ذلك** » .

وأخيرًا . . ذهبت إحداهن متخفية أمام الغلام ، وقالت : **الآن أقدم له الخمر والكأس ، وأضع فى الخمر دواء مُذهبًا للعقل ، فلا جرم أن يسرى فى أوصاله فقدان الشعور .**

ما أن احتسى الغلام تلك الخمر ، حتى فقد صوابه ، وهكذا كلل سعى الجارية الفاتنة بالنجاح ، وظل الغلام الفضى الصدر ثملا لا يعرف شيئًا عن كلا العالمين ، وذلك طوال اليوم حتى المساء .

وما أن أقبل الليل ، حتى جاءت الجوارى فى حذر واضطراب ، ثم وضعنه فى فراشه ، وحملنه خفْية إلى تلك الفتاة ، وبسرعة أجلسنه على عرشٍ ، ونثرن عليه ماء الورد والمسك .

وفى منتصف الليل عندما بات الغلام نصف مفيق ، فتح عينيه الشبيهتين بالنرجسة عن آخرهما ، فرأى قصراً يشبه الفردوس روائه ، ورأى عرشًا ذهبيًا يحيط به ، وقد اشتعلت عشر شموع عنبرية أكثر مما تشتعل أعواد الحطب ، وشُغلت الفتيات بالطرب والإنشاد ، حتى ودَّع العقل الروح ، وودعت الروح الجسد ! .

وكانت الفتاة تجلس وسط الجمع كأنها الشمس بفعل نور الشمع ، فجلس الغلام يتملكه السرور والفرح ، وفقد نفسه أمام طلعة الفتاة ، وظل حائراً فاقداً العقل والروح ، بعيداً عن إدراك هذا العالم أو ذاك ، وامتلأ قلبه عشقًا ، وعجز لسانه عن النطق ، وادركت روحه الحال من الذوق ، وتعلقت عيناه بوجه الفتاة وأنصتت أذناه إلى صوت الألحان ، وتنسمت مَشامُّه رائحة العنبر .

وأخيراً .. خرجت أنفاسه أكثر لهيبًا من النار ، فسارعت الفتاة وأعطته كأس خمر في الحال ، كما جعلت القُبْلَة نقل الشراب[1] ، فظلت عينه معلقة بطلعتها ، ودَهَمَتْه الحيرة من التطلع إلى وجهها .

ولما لم ينطق لسانه بكلمة ، ذرفت الفتاة الدمع ، وحكَّت رأسها جزعًا ، وهكذا ظلت الفتاة الفاتنة تذرف الدمع غزيراً منسابًا على وجنتيها كما كانت تُقَبّله قُبْلة كالسُّكْر أحيانًا ، أو تضع الملح فى القُبلة بلا شفقة أحيانًا ، وأحيانًا تداعبه بطرتيها المضطربتين ، وأحيانًا تفقد نفسها فى عينيه الساحرتين .

---

(١) كما يقول الشاعر العربى : وشربنا من المدام كئوسًا وجعلنا التقبيل نقل الشراب

ظل الغلام الثمل أمام الفتاة الجذابة محدقًا عينيه ؛ ولكنه ليس في صحو ولا غيبة ، وظل الغلام على هذه النظرة ، حتى أقبل الصبح بإشراقة تامة ، وماأن أقبل الصبح وهبت نسائم الصباح ، حتى فقد الغلام كل وعيه مما به من سُكْر ، وما أن نام الغلام العالى المنزلة ، حتى أسرعن بحمله إلى مكانه مرة أخرى .

ما أن ثاب الغلام الفضى الصدر إلى رشده آخر الأمر ، حتى تملكه الاضطراب ولم يعلم حقيقة ما حدث له ، وكيف حدث ما حدث ؛ ولكن أى جدوى له من الاضطراب ؟ وعلى الرغم من أنه لم يُصَبْ بأى آلام أو مضرة ، فقد تصبب عَرَقًا من الرأس إلى القدم ، فضرب بيده ثوبه ومزقه ، واقتلع شَعْرَهُ ، ونثر التراب على رأسه ، فسألوه عن القصة ، فقـــال :

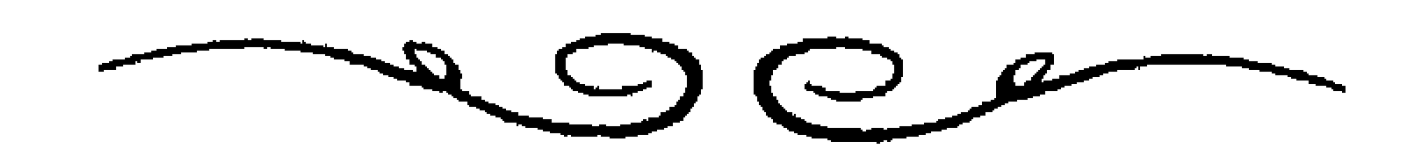
– **« إننى لا أستطيع ترديد ما حدث ؛ لأن ما رأيته عيانًا وأنا ثَمِل نشوان، لا يمكن أن يراه فى منامه أى إنسان .. وتلك الأمور التى تركتنى فى وحدتى حيران ، لا أعلم أنها حَدَثَت لإنسان ، وما رأيته لا أستطيع التعبير عنه ، ولا يوجد سر أعجب مما حدث »** .

فقال الجميع : **تُبْ إلى رُشدك فى النهاية . وأذكر ولو قليلاً مِنَ الكثير الذى رأيته .**

فقال : لقد ألَمَّ بى العجز كأى مضطرب ، ولا أعلم هل رأيت كل ذلك ، أم رأيتُ شيئًا آخر ؟ كما أننى لا أعلم هل رأيته مما بى من سُكْر ، أم سمعته وأنا فى صحو ورشد ؟ وهل سمعت كل شىء أم لم أسمع شيئًا ؟ وهل رأيت كل شىء ، أم لم أر شيئًا ؟

فقال له أحد العقلاء : لقد رأيت حلماً ، فلم يتملكك الاضطراب والجنــــــون ؟

قال : « لا أعلــم إذا كان ما رأيتـه فى عالــم الوهــم أو فى عالـــم اليقظة ، ولا حال أعجب من هذا فى كل الدنيا ، فهـذه حالة لا واضحة ولا خفية ، ولا أستطيع القول ، كما لا أستطيع الصمت ، وأنا فى دهشة بين هذا وذاك ؛ ولن يمحى ذلك الزمان من روحى ، كما أننى لا أجد ذرّة تدلنى عليه ، لقد رأيت صاحبة جمال ، لا يضاهيها أحد فى كمالها بأى حال ، وليست الشمس أمام طلعتها إلا ذرّة ، والله أعلم بالصواب ، وكيف أتكلم أكثر من هذا وأنا لا أعرف حقيقة ما حدث ؛ وعلى الرغم من أننى قد رأيتها من قبل ؛ ولكن لا أعلم هل رأيتها أوْ لَمْ أرها ؟ وها أنذا مضطرب بين هذا وذاك » !



(العشق فى المثنوى)

* ويقول « جلال الدين الرومى » (٦٠٤-٦٧٢هـ/١٢٠٧-١٢٧٣م) :

١ ** استمع للناى كيف يقص حكايته ، إنه يشكو آلام الفراق ، يقول :

- « إننى منذ قطعت من منبت الغاب ، والناس رجالاً ونساء يبكون لبكائى .

« إننى أنشد صدراً مزقه الفراق ، حتى أشرح له ألم الاشتياق ، فكل إنسان أقام بعيداً عن أصله ، يظل يبحث عن زمان وصله .

٥ ** لقد أصبحت فى كل مجتمع نائحًا ، وصرت قرينًا للبائسين والسعداء ، وقد ظن كل إنسان أنه قد أصبح لى رفيقًا ؛ ولكن أحدًا لم يُنَقِّب عما كمن فى باطنى من الأسرار .

وليس سرِّى ببعيد عن نواحى ؛ ولكن أنَّى لعين ذلك النور ، أو لأذن ذلك السمع الذى به تُدرك الأسرار ؟

وليس الجسم بمستور عن الروح ، ولا الروح بمستور عن الجسم ؛ ولكن رؤية الروح لم يؤذن بها لإنسان » .

إن صوت الناى هذا نارٌ ، لا هواء ، فلا كان من لم تضطرم فى قلبه مثل هذه النار .

١٠ ** وهذه النار التى حلَّت فى الناى هى نار « العشق » ، كما أن الخمر تجيش بما استقر فيها من فورة « العشق » .

إن الناى نديم لكل من فَرَّقه الدهر عن حبيب ، وإن أنغامه قد مزقت ما يغشى أبصارنا من حُجب .

مَنْ رأى مثل الناى سُمًا وترياقًا ؟ مَنْ رأى مثل الناى رفيقًا مشتاقًا ؟

إن الناى يروى لنا حديث الطريق الذى ملأته الدماء ، ويقص علينا قصص عشق المجنون .

وهذه الحكمة (التى يرويها) قد حُرمت على من لا عقل له ، فليس هناك من يشترى بضاعة اللسان سوى الأُذُن .

١٥ ** لقد أصبحت أيامنا متشابهات فى الهموم ، وصارت الحرق والآلام ملازمة لهذه الأيام .

فإذا ذهبت الأيام فقل : « اذهبى ، فلا خوف لدينا (من ذهابك) ، ولتبق أنت يا من ليس لك نظير فى الطهر والنقاء » .

كل من لم يكن من فصيلة السمك فإنه يشبع من الماء ، وكل من كان بلا رزق طال يومه .

ولا يستطيع غرٌ أن يدرك حال من أنضجتهم التجارب ، فلنقصر القول على ما قلناه ونكتف به .

أيها الولد ! إلامَ تظل أسير الذهب والفضة ؟ حطم قيودك وتحرر منها .

٢٠ ** إنك لو أردت أن تغترف البحر بكوز ، فهل يسع هذا الكوز أكثر مما يكفيك يومًا واحدًا ؟

ومع هذا فإن عين الحريص (على الدنيا) لا تمتلىء (ولا يغمض لها جفن) ، وما يحفل الصدف بالدُّر إلا حين يغتمض .

وكل من تمزقت ثيابه من العشق ، فإنه يصبح طاهرًا من الحرص ، ومن كل العيوب .

فلتسعد أنت يا من عشقُه الجميل سرّ هيامنا ، ويا من هو الطبيب لكل ما نشكوه من عَلل .

يا من هو الدواء لغرورنا وكبريائنا ! يا من هو لنا مثل أفلاطون وجالينوس !

٢٥ ** إن « العشق » جعل جسم الأرض يعلو على الأفلاك ، فرقص الجبل وأضحى خفيف الحركة .

« العشق » حل فى روح الطور أيها العاشق ، فسكر الطور وخرّ موسى صعقًا (١) .

آه لو كانت شفتاى تقترنان بشفتى حبيبى ، إذن لكنت كالناى أقول ما ينبغى قوله .

فكل من فرّقه الدهر عن أهل لسانه ، يصب بلا لسان حتى ولو سُمِعَ له مائة صوت !

وحين يذبل الورد وينقضى عهد بستانه ، لا يعود البلبل - بعد هذا - يروى لك قصة (أشجانه) .

٣٠ ** إن المعشوق هو الكل ، وأما العاشق فحجاب ، والمعشوق هو الحى وأما العاشق فميت .

وحينما لا تكون للعاشق رعاية من العشق ، فإنه يبقى تعسًا كطائر بلا جناح .

وكيف يكون لى عقل يدرك ما أمامى وما ورائى ، حينما لا يكون نور حبيبى أمامى وورائى ؟

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة الأعراف : « فلما تَجَلَّى ربّه للجبل جَعَلَهُ دكًا وَخَرَّ موسى صَعقًا » . (آية : ١٤٣) .

إن العشق يقتضينا أن نبوح بهذا القول ، وإلا كيف تكون المرآة إذا لم تعكس صور المرئيات ؟

أوَ تدرى لمَ أُظلمت صفحة مرآتك ؟ إنها أُظلمت لأن الصدأ قد عَلاَها ، ولَم ينفصل عنها .

٣٥ ** فاستمعوا أيها الأحباب إلى هذه القصة ، فهى تنطوى بحق على نقد حالنا .

*** حكاية عشق ملك لإحدى الجوارى وشراء الملك هذه الجارية :**

« كان هناك ملك فى سالف الزمان ، دان له ملك الدنيا وملك الدين ، وذات يوم ركب هذا الملك مع خواصه من أجل الصيد .

فرأى جارية على الطريق السلطانى ، فصارت روحه أسيرة لهذه الجارية .

وحين وقع طير روحه فى القفص ، دفع المال واشترى تلك الجارية .

٤٠ ** فلما اشتراها ، وقَرَّ بها عينًا ، أصابها القضاء بالمرض .

لقد كان لديه حمار لا سِرْج له ، فلما وجد السرج أكل الذئب الحمار ! .

وكان لديه إناء ولكن لا سبيل له إلى الماء ، فلما وجد الماء انكسر الإناء !

فجمع الملك الأطباء من كل حدب وصوب ، وقال لم : « إن روح كلينا فى أيديكم .

فأما روحى فيسيرة ؛ ولكن هذه الجارية روح روحى ، وأنا مريض عليل ، وهى دوائى .

٤٥ ** فكل من أجرى علاجًا لروحى ، نال كنزي ودُرّى ومُرجانى » .

فقالوا جميعًا له : « إننا سوف لا نبالى بأرواحنا ، وسوف نجمع أفهامنا ، ونتعاون معًا (لإدراك تلك الغاية) .

فكل واحد منا مسيحُ العالم ، ولكل ألم دواء عندنا » .

وكان من غرورهم أن لم يقولوا : « إن شاء الله » فأظهر لهم الله عجْز البَشَر .

إن ترك « الاستثناء »[1] عندى قسوة ، ولست أعنى به مجرد القول الذى هو حالة عارضة (لا يؤمن بها القلب) .

٥٠ ** فكم من متكلم لا يأتى فى قوله بعبارة « الاستثناء » ومع هذا فروحه مقترنة بروح تلك العبارة .

فكل ما صنعوه من علاج ودواء ، كان يزيد من الألم ولا يتحقق معه الشفاء .

فأصبحت هذه الجارية من المرض فى نحول الشعرة ، وكانت عينا الملك تفيضان كالنهر بالدموع الدامية .

وشاء القدر أن يزيد مزيج الخل والعسل[2] من الصفراء ، ويزيد زيت اللوز من يبوسة الجوف .

---

(١) الاستثناء هنا يقصد به تعليق الإنسان إرادته على إرادة الله .

(٢) مزيج الخل والعسل كان يستخدم لمعالجة الصفراء .

وسببت العليلة [1] القبض على الجارية - وهى التى تحدث الاطلاق - وأصبح الماء يزيد من حرارتها كأنه نفط .

*** كيف ظهر للملك عجز الحكماء عن معالجة الجارية :**

٥٥ ** ولما رأى الملك عجز هؤلاء الحكماء ، جرى عارى القدمين نحو المسجد .

ودخل المسجد واتجه نحو المحراب ، وابتل مكان السجود بما جرى من دمعه .

فلما أفاق من الغرق فى لُجَّة الفناء ، أطلق لسانًا جميلاً بالمدح والثناء ، فقال :

- « **يا من أقلّ عطائه ملكُ الدنيا ! ماذا أقول وأنت تعلم السر وأخفى ؟ يا من هو على الدوام ملجؤنا عند الحاجة ، إنا ضللنا السبيل مرة أخرى** [2] . .

٦٠ ** ولكنك أنت قد قلت : « إننى أعرف سرك ، فسارع إلى إعلانه » .

فلما ارتفع الصياح من أعماق روحه ، جاش بحر العطاء ؛ وبينما هو يبكى غلبه النوم ، فرأى فى النوم شيخًا يظهر أمامه ؛

وقال له الشيخ : « أيّها الملك ! أبشر فإن حاجتك سوف تقضى ، إذا جاءك فى الغد رجل غريب من عندنا .

فحينما يجيئك فهو حكيم حاذق ، فاعلم أنه صادق ؛ لأنه أمين صادق .

---

(١) دواء مسهل .

(٢) يقصد بضلال السبيل هنا اللجوء إلى غير الله .

٦٥ ** فانظـــر الســـحر المطلـــق فى عـلاجه ! وتأمـل قُدرة الحـــق فى مزاجه ! [1]

فلمـا طلـع النهـار وحـان الموعـد ، وبزغت الشـمس من المشـرق فاحترقت النجوم .

كان الملك يجلس فى البهو منتظراً ، ليرى (مصداق) ما أظهر له من السر .

فرأى شخصًا فاضلاً أصيلاً ، كان كأنه شمس بين الظلال .

كـان يقـتـرب من بعـيد كـأنه الهـلال ، وكـان لرقـتـه كـأنه غـير موجود ، فقد كان وجوده مثل الخيال .

٧٠ ** إن الخـيـال فى الروح مـثل العـدم ، (ومع هذا) فلتنظر إلى هذا العالم ، كيف أنه يدور على الخيال !

فعلى الخيال يقوم ما بين الناس من صلح أو صراع ، ومن الخيال ما يَعدُّه الناس فخراً ، وما يعدُّونه عاراً .

ولكن هذه الخيالات التى هى حبائل للأولياء ، ليست إلا صورة للحسان فى بستان الله .

وذلك الخـيـال - الذى رآه الملك فى النوم - كـان على الدوام يتجلى فى طلعة ضيفه .

فتقدم الملك إلى مكان الحُجَّاب ، ومثل أمام ذلك الضيف الذى جاء من الغيب .

---

(١) المزاج هنا ما يمزجه الطبيب من مواد لصنع دوائه .

٧٥ ** كان كلٌ منهما سبَّاحًا عالِمًا : فاتصلت روحاهما دون رابطة مادية [١] .

وقال له : « إنك كنت معشوقى لا تلك الجارية ! لكن الأمور يُظهر بعضها بعضًا فى هذه الدنيا .

يا من أنت لى كالمصطفى وأنا كعُمَر ، هأنذا أربط حزامى وأقف أمامك للخدمة » .

* الدعاء إلى الله ولى التوفيق أن يوفقنا لرعاية الأدب :

إنا نرجو من الله أن يوفقنا للأدب ، فإن من لا أدب له يبقى محرومًا من لُطف الرب .

إن من لا أدب له لا يقتصر أذاه على نفسه ، وإنما هو يشعل النار فى جميع الآفاق .

٨٠ ** لقد كانت مائدة تنزل من السماء بدون عناء ، وبدون بيع أو شراء .

ولكن جماعة من بين قوم (موسى) قالوا بوقاحة : « أين الثوم والعدس ؟ » .

فانقطع عنهم خبز السماء ومائدتها ، وبقى لهم عناء الزراعة والكدح بالفأس والمنجل .

ولكن عندما شفع (عيسى) لدى الحق ، أرسل لهم الخوان والغنيمة على الطبق .

---

(١) المعنى الحرفى فاتصلت روحاهما دون خيط ، وقد جاء فى الحديث قول الرسول - عليه الصلاة والسلام : « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف » .

فعاد أهل الوقاحة إلى ترك الأدب ، وتخاطفوا الطعام كالشحاذين .

٨٥ ** فناداهم عيسى قائلاً : « إن هذه المائدة دائمة ، ولن ينقطع ورودها إلى الأرض » .

إن سوء الظن والحرص - أمام مائدة العظيم - كُفْر .

لقد أُغلق باب الرحمة على الناس من جَرّاء هؤلاء الذين بدوا كالشحاذين ، وقد أعماهم الحرص .

إن السحب لا تجيء إذا مُنعت الزكاة ، ومن الزنا يقع الوباء فى جميع الجهات .

فكل ما أصابك من ظلمات وغم ليس إلا نتيجة للتبجح والتوقح .

٩٠ ** وكل من أبدى توقحًا فى طريق الحبيب ، فهو قاطع طريق الناس ، ولا رجولة عنده .

فمن الأدب امتلأ بالنور الفلك ، ومن الأدب صارت العصمة والطهر صفات الملك .

ومن الوقاحة كان كُسوف الشمس ، ومن الجرأة رُدّ عزائيل [1] عن الباب .

*** لقاء الملك للطبيب الإلهى ، الذى بُشّر بلقائه فى المنام :**

فتح الملك ذراعيه وعانق الضيف ، ووقع فى قلبه وروحه إحساس كأنه « العشق » .

فأخذ يُقبّل يده وجبينه ، ويسأله عن المقام والطريق .

---

(١) عزائيل اسم ابليس قبل سقوطه والشاعر يريد هنا أنه رد عن باب الله لتوقحه .

٩٥ ** وقاده – وهو يسائله – إلى صدر المجلس ، وقال : « لقد وجدت آخر الأمر كنزًا لقاء صبرى » .

ثم قال : « ياهدية الحق ويا دافع الحرج ! ويا من معنى : (الصبر مفتاح الفرج) !

يا من لقاؤه جواب لكل سؤال ! إنك قد حللت مشكلتى بدون قيل وقال !

إنك الترجمان لكل ما فى قلوبنا ، وإنك الآخذ بيد من زلّت فى الطين قدمه !

مرحبًا يامُجتبى يا مُرتضى إن تَغِبْ جاء القضاء ضاق الفضاء [1]

١٠٠ ** أنت مولى القوم من لا يشتهى قد رَدَى كلاّ لئِن لَمْ يَنْتَهِ .

* كيف أدخل الملك الطبيب إلى المريضة ليرى حالها :

وحين انقضى هذا المجلس وانفض خوان الكرم ، أمسك بيده وقاده إلى مقر الحريم .

وقص عليه قصة المريضة ومرضها ، ثم أجلسه بعد ذلك أمام المريضة .

ففحص لون وجهها ونبضها وقارورتها ، واستمع إلى وصف عوارض مرضها وأسبابه .

وقال : « إن كل ما قدموه من علاج لم يكن سبيلاً للشفاء ؛ بل هم قد زادوها مرضًا .

١٠٥ ** إنهم لم يكونوا على علم بحال باطنها ، أعاذنا الله مما يفترون .

---

(١) هذا البيت والذى يليه عربيان فى الأصل ، ويلاحظ فيهما وفى غيرهما من الأبيات العربية فى المثنوى أن مستوى ما ينظمه الشاعر بالعربية أقل بكثير من مستوى شعره الفارسى .

لقد رأى العلة وانكشف له ما كان خافيًا ؛ ولكنه أخفى الأمر على السلطان ، ولم يقل شيئًا .

فلم تكن علّتها من السوداء ولا الصفراء ، فإن رائحة كل حطب تظهر فى دخانه .

لقد رأى من أنينها أنها مريضة القلب ، وأن الجسم بخير ولكنها أسيرة القلب .

فإن « العشق » يظهر فى أنين القلب ، وليس هناك مرض مثل مرض القلب .

١١٠ ** وإن علّة العاشق لمتميزة عن سائر العلل ، فالعشق هو اصطرلاب [١] أسرار الله .

وإذا كان « العشق » من هذا الجانب أو ذاك ، فإنه فى عاقبة الأمر يهدينا إلى تلك الناحية .

وكل ما أقوله فى شرح « العشق » وبيانه ، أخجل منه عندما أواجه العشق ذاته .

فإن كان تفسير اللسان يثير السبيل لمعرفة الحقيقة ، فإن العشق – بدون اللسان – أفصح من أى بيان .

فبينما القلم مندفع فى الكتابة ، إذا به ينشق على نفسه حين جاء إلى « العشق » !

١١٥ ** والعقل فى شرح « العشق » مثل حمار نام فى الوحل ، فالعشق نفسه هو الذى يشرح لنا « العشق » وفعله .

إن الشمس هى دليل الشمس ، فإذا كنت بحاجة إلى الاهتداء بها ، فلا تحوّل وجهك عنها .

---

(١) الاصطرلاب : آلة صغيرة كانت تستخدم لمراقبة مواقع الأجرام السماوية .

وإن كان الظل يقدم لك علامة لهذه الشمس ، فإن الشمس الخالدة [1] تُلقى عليك نوراً روحيًا .

والظل مثل السمر يأتيك بالنوم ، وحين تطلع الشمس ينشق القمر .

وليس فى هذه الدنيا غريبٌ مثل الشمس ، شمس الروح باقية لا أمس لها .

١٢٠ ** والشمس الظاهرة - وإن كانت فريدة - فإننا نستطيع أن نتصور مثيلاً لها .

أما شمس الروح التى خرجت من الأثير ، فليس لها فى الذهن ولا فى العالم الظاهرى نظير .

وأين التصور الذى يتسع لذاتها حتى يكون من المستطاع تصور مثلها .

وحين جاء حديث وجه شمس الدين [2] حجبت شمس السماء الرابعة وجهها .

ومادام اسمه قد ذكر ، فقد وجب علينا أن نقوم بشرح رمز من إنعامه .

١٢٥ ** فهذا الشذى قد جذب انتباه روحى ، إذ وجدت فيه رائحة قميص (يوسف) .

فبحق الصحبة التى جمعتكما سنين ، اذكر لنا حالاً من أحواله الطيبة .

حتى تضحك الأرض والسماء فى نشوة ، وتزداد قدرة العقل والروح والعين مائة مرة .

---

(١) شمس الروح الخالدة التى لا يمكن أن يعتريها ظل .

(٢) يقصد أستاذه وصديقه شمس الدين التبريزى .

لا تكلفنى فإنى فى الفنا   كلّت أفهامى فلا أحصى ثنا[1]
كل شىء قاله غير المفيق   إن تكلّف أو تصلّف لا يليق[2]

١٣٠ ** ومـاذا أقول ، وليس فىّ عرق واع ، ليشرح حال ذلك الرفيق الذى لا ندّ له .

فدع شرح هذا الهجران ، وحديث القلب الدامى إلى وقت آخر .

قال : أطعمنى فإنى جائع   واعتجل فالوقت سيف قاطع [3]

فالصوفى ابن الوقت أيها الرفيق ، وليس قولك « غداً » من شرط الطريق أم لعلك لست برجل صوفى ، فالنسىء يجعل الموجود كالعـــدم .

١٣٥ ** فقلت له : إن الأفضل سترُ سرِّ الحبيب ، فلتصغ إلى المغزى الذى تنطوى عليه القصة .

وخير لنا أن يجىء سرّ الأحبة فى حديث الآخرين .

فقال : حدثنى حديثًا مكشوفًا عاريًا لا غلائل فوقه ، يا أبا الفضائل !

وارفع النقاب وبُحْ بالقول ، فإنى لا أخلو بالحبيبة وهى مرتدية قميصًا .

قلت : إنه لو ظهر عريان للعيان ، فلن تبقى أنت ولا جانباك ولا وسطك .

١٤٠ ** فلتكن ذا أمل ولكن قف عند حدّ فى أملك ، فإن القشة لا تستطيع أن تحتمل الجبل .

فهذه الشمس التى تضىء العالم لو اقتربت منه قليلاً لأحرق كل ما فيه .

---

(١) و (٢) هذان البيتان عربيان فى الأصل .

(٣) هذا البيت عربى الأصل .

فلا تبحث عن الفتنة والثورة وإراقة الدماء ، ولا تقل أكثر من هذا عن شمس تبريز .

فهذا الحديث لا آخر له ، فلتبدأ القول من جديد وتتم هذه القصة .

*** كيف طلب الولى من الملك أن يتيح له الخلوة مع الجارية :**

قال الحكيم : « أيها الملك أخْلِ المنزل ، وأبعد الأقارب والأجانب .

١٤٥ ** ويجب ألا تكون فى الدهليز أذنٌ تسمع حتى أسأل هذه الجارية عن أشياء » .

فبقيت الدار خالية ، ليس بها ديار ، سوى الطبيب والمريضة .

وقال الطبيب بلطف ورقّة للمريضة : « إلى أى بلدة تنتمين ؟ إن العلاج يختلف باختلاف البلاد .

ومَنْ لك منْ الأقرباء فى تلك المدينة ؟ وبمن لك قُرب واتصال ؟ » .

ووضع يده على نبضها ، وأخذ يوجه إليها السؤال بعد السؤال عن جور الدهر .

١٥٠ ** إن الإنسان إذا ما أصابت قدمه شوكه ، فإنه يضع قدمه فوق ركبته .

ويظل يفتش بحد الإبرة عن رأس الشوكة ، فإذا لم يجدها يبللها بريقه .

فإذا كانت شوكة فى القدم تسبب هذه الشدة ، فما بالك بشوكة فى القلب ؟ ألا فلتجب !

ولو كان كل خسيس يرى الأشواك التى تصيب القلوب ، لما استطاعت الهموم أن تصيب إنسانًا .

فإنه لو وضع شخص شوكة تحت ذيل حمار ، فإن الحمار لا يستطيع دفع ذلك ، فيقفز .

١٥٥ ** ويظل يقفز فتزداد الشوكة إيغالاً ، فلابد من عاقل لينتزعها .

ويظل الحمار - لشدة ألمه وتحرقه - يضرب الأرض بسيقانه للخلاص من تلك الشوكة ، فيجرح نفسه فى مائة موضع .

وقد كان هذا الحكيم مقتلع الأشواك أستاذًا ، فمدّ يده ، وأخذ يفتش عن مكان الداء .

لقد ظل يستفسر بطريق الحكاية من هذه الجارية عن أحبتها .

فباحت للحكيم بقصص عن مُقامها ، وسادتها ، ومدينتها ، وضواحيها .

١٦٠ ** فكان يصغى إلى القصة التى ترويها بأذنيه ؛ بينما هو قد ألقى بانتباهه إلى نبضها ، وفحص ضرباته .

حتى إذا اضطرب نبضها عند ذكر اسم (علم أن) صاحبه غاية روحها فى هذا العالم .

فعددت أصدقاءها فى بلدتها ، ثم ذكرت بعد هذا مدينة أخرى ، فسألها الحكيم : « كيف خرجت من مدينتك ؟ » وفى أية بلدة طالت إقامتك ؟

فذكرت اسم مدينة ؛ ولكنها مرت بذكرها دون أن يتغير لون وجهها أو نبضها .

١٦٥ ** وعادت تتحدث عن السادة وعن البلاد واحدة إثر أخرى ذاكرة الأماكن والخبز والملح .

وأخذت تحدثه عن المدن واحدة واحدة ، وتروى له خبر المنازل منزلاً منزلاً ، فلم يضطرب لها عرقٌ ، ولا اصفر وجه .
كان نبضها لا يُنْبِىء بشىء عن سَوء حالها ، حتى سألها عن سمرقند الحلوة كالسكر .
فاضطرب نبضها ، وأخذ وجهها يحمر ويصفر ؛ إنها كانت قد فارقت صائغاً من سمرقند .
وعندما أدرك الحكيم هذا السر من المريضة ، عرف أصل الألم والبلاء .

١٧٠ ** وقال : « أين محلة هذا الصائغ ؟ فقالت : إنه يسكن عند رأس الجسر بمحلة غاتفر » .
فقال الحكيم : « لقد عرفت السرّ فى مرضك ، ولن ألبث حتى أظهر فى علاجك منه ألوان السحر .
فاهنئى واطمئنى ، وقَرّى عينًا ، فإنى صانع بك ما تصنعه الأمطار بالمروج .
ولسوف أحمل همك فلا تغتمى ، فإنى أكثر إشفاقًا عليك من مائة أب .
ولكن حذار أن تذيعى هذا السر لإنسان ، حتى ولو أكثر الملك سؤالك ، والاستفسار منك .

١٧٥ ** فإنه إذا أصبح قلبك مقبرة لسرك ، عجل ذلك بتحقيق مرادك ، فقد قال الرسول -صلى الله عليه وسلم- : **إن كل من أخفى سرّه سرعان ما يتحقق له مراده**[1] .
والبذور عندما تختفى تحت الأرض ، تصبح هى السرّ فى اخضرار صفحة البستان .
وكيف كان الذهب والفضة ينضجان فى المنجم لو لم يختفيا فى جوف الثرى ؟ .

---

(١) نص الحديث النبوى الذى يقصده هو « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود » .

ولقد جَعَلَت وعود الحكيم وألطافه هذه الجارية آمنة من الخوف .

١٨٠ ** فالوعود الصادقة تلقى قبولاً من القلب ، وأما الوعود الكاذبة ، فتبعث الهدم فى النفس .

ووعد أهل الكرم نقدٌ متداول ، وأما وعد اللئام فعناءٌ للروح .

*** كيف أدرك الولي مرض الجارية وعرض الأمر على الملك :**

بعد ذلك نهض الحكيم ، وتوجَّه إلى الملك ، وأخبره ببعض ما جرى ، وقال : « التدبير الآن هو أن تحضر هذا الرجل من أجل علاج هذا المرض .

فلتدعُ الصائغ من هذا البلد البعيد ، ولتدخل الغرور إلى نفسه بما تهبه من ذهب وخلع .

*** كيف أوفد الملك الرُسُل إلى سمرقند لإحضار الصائغ :**

١٨٥ ** فأرسل الملك إلى تلك الجهة رسولاً أو رسولين ، حاذقين من أهل الكفاية والعدل .

وجاء هذان الرسولان إلى سمرقند من أجل الصائغ الظريف الفاضل ، وقالا للصائغ : « أيها الأستاذ اللطيف الكامل المعرفة ! لقد ذاعت فى المدائن صفاتك !

إن فلانًا الملك اختارك لتكون صائغًا عنده ؛ لأنك رجل عظيم !

فإليك هذه الخلعة وهذا الذهب والفضة ، وحينما تجيء إلى حضرته فسوف تصبح رفيقًا له ونديمًا .

١٩٠ ** ورأى الصائغ المال والخلع الكثيرة ، فاغترَّ بها وفارق أهله وأبناءه . ومضى الرجل إلى الطريق سعيدًا ، وما عرف أن الملك قد قصد قتله .

فركب جوادًا عربيًا وأسرع به فرحًا ، فعلم - فيما بعد -أن خلعة كانت ثمنًا لحياته ! .

فيا من مضيت فى سفرك وأنت تشعر بمائة رضًى ، لقد سعيت بقدميك نحو سوء القضاء !

كان فى خياله الملك والعز والعظمة ، فقال عزرائيل : « اذهب فسوف تنال ذلك حقًا ! » .

١٩٥ ** وعندما وصل من السفر هذا الرجل الغريب ، أحضره الطبيب أمام الملك .

لقد جىء به مُعززًا إلى الملك ، حتى يحترق أمام شمعة طراز [١]

فلما رآه الملك ، بالغ فى تعظيمه ، وأسلم إليه خزائن الذهب .

وقال الحكيم للملك : « أيها السلطان العظيم ! أنعم بتلك الجارية على هذا السيد .

حتى يُحسن حال الجارية فى وصاله ، ويدفع ماءُ وصله تلك النار عنها ! »

---

(١) أى حق يحترق أمام الجارية ، ويقصد بالشمعة المرأة الطويلة الجميلة الباسمة ، وأما طراز فبلدة فى تركستان شرقى نهر سيحون ، كانت مشتهرة بجمال سكانها .

٢٠٠ ** فوهب الملك الصائغ تلك الجارية الحسناء ، وجمع بين هذين اللذين كانا ينشدان الصحبة .

فلبثا يُشبعان رغبتهما ستة أشهر ، حتى غَدَتْ تلك الفتاة فى كامل صحتها .

وبعد هذا ، أعد الطبيب للصائغ شربة شربها ، فأخذ يضمحل أمام الجارية .

وعندما ذهب المرض بجماله ، لم تعد روح الجارية عليلة بهواه .

فلما أصبح دميمًا قبيحًا أصفر الوجه ، أخذت نار قلبها تنطفىء رويدًا رويدًا .

٢٠٥ ** إن العشق الذى لا يكون إلا من أجل نضارة اللون - ليس بعشق - وعاقبته سوء السمعة والعار !

فليته كان له قُبحًا ، حتى لا يجرى عليه هذا الحكم السيىء .

كان الدم ينهمر من عينى الصائغ اللتين كانتا تفيضان كالنهر ، إن وجهه غدا عَدواً لروحه !

وهكذا كان جناح الطاووس عدواً له ، وكم من ملك قتلته أُبهته !

فقال الصائغ : « إنى أنا ذلك الغزال الذى أراق الصياد دمه من أجل سُرّته !

٢١٠ ** بل إنى أنا ثعلب الصحراء الذى كَمنوا له ، وقطعوا برأسه من أجل فِرائه !

بل إنى ذلك الفيل الذى أراقت دمه ضربة الصياد من أجل سنّه

العاجى ! إن من قتلنى ما هو دونى ، ليس يدرى أن دمى لا يُهدر !

فاليوم علىّ وغداً عليه ، وإلا فمتى كان دم مثلى يذهب هدراً ؟

فالجدار إذا كان يُلقى على الأرض ظلاً طويلاً . . فإن هذا الظل يرتد نحوه .

٢١٥ ** وهذا العالم جبل ، وأما أعمالنا فنداء ، ولا بد أن يعود إلينا صدى نداءنا » .

قال هذا ، ولفظ النفس الأخير ، ومضى تحت التراب ، فخلصت تلك الجارية من الألم والعشق .

ذلك لأن عشق الموتى لا دوام له ، فالميت ليس بعائد إلينا .

أما عشق الحى ، فيبدو للروح والعين فى كل لحظة أنضر من الزهر !

فاختر لنفسك عشق ذلك الحى ، فإنه باق ، وهو الذى يسقيك شرابًا يزيد من قوة روحك .

٢٢٠ ** اختر عشق من وَجَد الأنبياء بعشقه القوة ، والمجد .

ولا تقُل : « ليس لنا سبيل إلى ذلك الملك » فإن التعامل مع الكرماء . . لا عسر فيه .

*** بيان أن قتل الصائغ وإعطاءه السُّم كان بإشارة إلهية :**

إن قتل هذا الرجل بيد الحكيم لم يكن بدافع من طمع ولا وَجَل .

وهو لم يقتله مرضاة للملك ، وإنما قتله عندما جاءه أمر الله وإلهامه .

فإن قطع الخِضْر حَلَق الغلام لأمر لا يدرك سره عامة الخَلْق .

٢٢٥ ** فكل من يتلقى من الله الوحى والجواب ، يكون كل ما يأمر به عين الصواب .

فالذى يهب الروح يجوز له أن يقتل ، وهذا الحكيم نائب عن الواهب ويده يد الله (١)

فضع رأسك أمامه مثل (إسماعيل) وأسلم الروح على خنجره فرحًا ضاحكًا .

حتى تبقى روحك ضاحكة إلى الأبد مثل روح أحمد الطاهر فى حضرة الأحد .

إن العشاق يشربون كؤوس الفرح حينما يُقتلون بأيدى الملاَح .

٢٣٠ ** والملك لم يُرِقْ هذا الدم من أجل شهوته ، فدع عنك سوء الظن والجدل .

إنك تظن أنه صنع فعلاً آثمًا ؛ ولكن متى كانت التصفية تدع غشًا فيما تنشد له حالة الصفاء ؟ » (٢)

ولمثل تلك الحال كانت الرياضة ، وكانت المعاملة الخشنة ، فهى كالكُور تنقّى الفضة مما عَلَقَ بها من شوائب .

ومن أجلها كان الامتحان الذى يميز بين الطيب والخبيث ، فهو كالنار التى تُخلِّص الذهب من الزبد !

ولو لم يكن فعله هذا من إلهام الإله ، لكان كلبًا ضاريًا لا ملكًا .

(١) لعل فى هذا البيت إشارة إلى قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ورسوله » وكذلك إلى قوله تعالى « وما رميت إذ رميت ولكن الله رَمَى » .

(٢) أى متى كان مثل هذا الملك الذى بلغ حالة الصفاء يصنع فعلاً آثمًا .

٢٣٥ ** (فهذا الملك) كان منزهًا عن الشهوة والحرص والهوى ، وقد صنع خيراً كان ظاهره الشر .

فإذا كان (الخضر) قد خَرق السفينة فى البحر ، فقد كان فى عمله هذا مائةَ صواب [1]

وقد خفى هذا على وهم (موسى) ، مع كل ما كان له من نور وفضل ، فلا تَطِرْ أنت بلا جناح .

(إن فعلة الملك تلك) وردة حمراء ، فلا تُسَمِّها دَمًا ! وهذا الملك سكران بالحكمة فلا تَقُل إنه مجنون !

فإذا كان هذا الملك قد قصد بفعله هذا إراقة دم مسلم ، فأنا كافر لو ذكرت اسمه !

٢٤٠ ** فإن العرش يهتز إذا مُدِحَ الشقى ، ويسوء بهذا المدح ظن التَّقى .

لقد كان ملكًا ، وكان واسع الإدراك ، وقد كان من الخاصة ، خاصة الله .

وإن الشخص الذي يقتله ملك مثل هذا ، يكون مآله إلى الحظ السعيد ، والجاه الرفيع .

فلو لم يكن الملك قد رأى أن نفع هذا الرجل فى قهره ، فكيف يكون هذا اللطف المطلق باحثاً عن القهر ؟

إن الطفل يرتعد أمام إبرة الحَجَّام ؛ ولكن الأم المشفقة يسعدها مثل هذا الألم .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة الكهف حكاية عن الخضر : « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » . (آية : ٧٩) .

٢٤٥ ** فهو يأخذ نصف حياة ، ويُعطى بدلا منه مائة حياة ؛ بل هو يُعطى ما ليس يخطر لك ببال .

إنك تتخذ من نفسك مقياسًا للأمور ؛ ولهذا وقعت بعيدًا ، بعيدًا ، فتعمق فى تأملك ! .

* حكاية البقال والببغاء :

« كان فى سالف العصر بقال ، وكان له ببغاء حسن الصوت أخضر اللون متكلم .

وكان هذا الببغاء يقف على الدكان حارسًا له ، ويحدِّث التجار جميعًا بلطيف المقال .

فقد كان ناطقًا فى خطاب الآدميين ، كما كان حاذقًا فى غناء الببغاوات .

٢٥٠ ** (وذات مَرة) قفز من ناحية الدكان إلى ناحية أخرى ، فأراق زجاجات زيت الورد .

وجاء صاحبه من ناحية المنزل ، وجلس على الدكان فارغ البال كأنه من السادة .

فرأى الدكان قد غمره الزيت ، وثيابه لَزِجَة ، فضرب الببغاء على رأسه ، فصار أقرع من الضرب .

وامتنع الببغاء عن الكلام بضعة أيام ، فأصبح الرجل البقال يتأوه من الندم .

فكان يقتلع شعر لحيته ويقول : « وا أسفاه ! إن شمس نعمتى أصبحت تحت السحاب .

٢٥٥ ** ليت يدى كانت قد كسرت فى تلك اللحظة ! كيف ضربت هذا الحلو اللسان على رأسه ؟ » .

وجعل يعطى الهدايا لكل درويش لعله يسترد نطق طائره .

وبعد ثلاثة أيام من الحيرة والألم ، كان يجلس على الدكان كأنه يائس .

وكان يظهر للطائر كل لون من العجائب ، لعله يبدأ النطق من جديد .

(وفى تلك اللحظة) كان درويش عارى الرأس يمر ، وكان رأسه خاليًا من الشعر كأنه ظهر طاس أو طست .

٢٦٠ ** فنطق الببغاء فى ذلك الوقت وصاح بالدرويش : « يا فلان ! لماذا اختلطت أيها الأقرع بأمثالك من القُرع ، لعلك أرقت الزيت من الزجاجة » .

فأضحك قياسه الخلق ، إذ أنه ظن نفسه مثل صاحب الدلق[1] فلا تتخذ من نفسك مقياسًا لأحوال الطاهرين ، حتى ولو تشابهت فى الكتابة كلمة « شير » بمعنى أسد ، و « شير » بمعنى لبن .

ولهذا السبب ضلَّت جملة أهل العالم فقليل من الناس من يعرف أبدال الحق .

٢٦٥ ** فقد ادعوا أنهم مساوون للأنبياء ، وظنوا أنفسهم مثل الأولياء ، وقالوا : « أنظروا ! إننا بَشَر ، وهم بَشَر ، ونحن وإياهم أسارى للنور والطعام » .

---

(١) الدلق هو الخرقة ، وصاحب الدلق هو الدرويش .

ومن عماهم لم يدركوا أن هناك فرقًا لا نهاية له بينهم وبين هؤلاء .

فالنحل كلها تأكل من مكان واحد ؛ ولكن يجيء من بعضها اللدغ ، ومن بعضها الآخر يأتى العسل .

والغُزلان نوعان كلاهما يأكل العشب ، ويشرب الماء ؛ ولكن أحدهما يجيء منه البعر ، ومن الآخر يأتى المسك المصفّى !

٢٧٠ ** ومن القصب صنفان يشربان من ماء واحد ؛ ولكن أحدهما خال ، والآخر (حافل) بالسكر .

فتأمل مائة ألف من أمثال هذه الأشياء ، وانظر كيف يفصل بينها طريق طوله سبعون عامًا !

فهذا يأكل ، فتتولد منه القذارة . . وذلك يأكل ، فيصبح كله نورًا إلهيًا ! وهذا يأكل فينبعث منه البخل والحسد ، وذلك يأكل فيفيض منه (عشق) الأحد !

وهذه أرض طيبة ، وتلك مالحة رديئة ، وهذا ملك طاهر ، وذاك شيطان ووحش ضار .

٢٧٥ ** فلو تشابهت الصورتان فذاك جائز ، فالماء الملح والماء العذب شبيهان فى الصفاء !

وليس يدرى الفرق بينهما سوى صاحب ذوق ، فأدركه ، فهو الذى يعرف الماء العذب من الماء المالح .

(فمن الناس) من يقيس السحر بالمعجزة ، فيظن أن كليهما مبنى على المكر .

فالسحرة من أجل منازعتهم لموسى أمسكوا عصا مثل عصاه .

لكن بين هذه العصا وتلك العصا : فرقًا واسعًا ! وبين هذا العمل وذاك العمل : طريق عظيم .

٢٨٠ ** فهذا العمل تشيعه لعنة الله ، وذاك العمل تقابله رحمة الله .

إن الكفار - لمرائهم - ذو طباع كطباع القِرَدَة ، والطبع (السيىء) : آفة داخل الصدر .

فالقرد يفعل ما يفعله الناس ، ويحكى ما يراه منهم كل لحظة ،

وهو يظن أنه قام بما يقوم به الإنسان ، ومتى كان هذا العنيد يدرك الفرق ؟

فالإنسان الفاضل يعمل بأمر (الله) والقرد يعمل من أجل العناد . فاحثُ التراب على رءوس هؤلاء المعاندين .

٢٨٥ ** إن المنافق يلتقى مع المؤمن فى الصلاة ، وذلك للنزاع والمنافسة ، وليس من أجل الضراعة !

ففى الصلاة والصيام والحج والزكاة ترى المؤمنين فى صراع مع المنافقين يتراوح بين النصر والهزيمة .

وسوف يكون النصر فى العاقبة للمؤمنين ، وتكون الهزيمة فى الآخرة للمنافقين .

وإذا كان هذان الفريقان يلعبان معًا لعبة واحدة - فإنهما مختلفان - معًا اختلاف المروزى [1] والرازى [2] .

فكل منهما يتجه إلى مقامه ، وكل منهما يمضى فى السبيل التى تتفق مع اسمه .

---

(١) نسبة إلى مدينة مرو .

(٢) نسبة إلى مدينة الرى .

٢٩٠ ** والمؤمن إذا وُصف بالإيمان : سَعِدَتْ روحـــــه ، وإذا نُعِتَ بالنفاق : تأججت نار الغضب فى نَفسه .

واسم المؤمن محبوب لذاته ، وأما المنافق فاسمه بغيض لآفاته ، فحروف كلمة « مؤمن » ليست فى حد ذاتها حروفًا مشرفة ، ولفظ مؤمن ليس إلا وسيلة للتعريف بالمؤمن .

فإذا سميت المؤمن منافقًا ، فإن هذا الاسم الخسيس يلدغه فى باطنه كأنه عقرب .

ولو لم يكن هذا الاسم مشتقًا من جهنم ، فلماذا يحس المرء فيه مذاق جهنم ؟

٢٩٥ ** وليس قبح هذا الاسم نابعًا من حروفه ، كما أن ملوحة ماء البحر ليست من الوعاء الذى يحتويه .

فالحرف كالوعاء والمعنى فيه كالماء ، وبحر المعانى عند الله الذى عنده أُمّ الكتَاب .

والبحر المالح والبحر العذب فى هذه الدنيا بينهما برزخ لا يبغيان [1] واعلم أن كلا هذين البحرين ينبعان من أصل واحد ، فدعهما وامضِ حتى تدرك أصلهما .

ولن يفيدك الاعتبار فى تمييز الذهب الخالص ، من الذهب المشوب ، ما لم يكن لديك مَحَكّ لذلك .

٣٠٠ ** وكل من وضع الله له مَحكّا فى روحه ، فإنه يمحص به كل يقين من الشك .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة الرحمن : « مَرَجَ البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » (١٨ : ١٩) .

(فالإنسان) الحى لو وقع فى فمه قَذَى ، فإنه لا يستريح حتى يلفظه ، فلو دخلت الفم وسط آلاف من اللقم قطعة صغيرة من القذى ، فإن حس الرجل الحى يتعقبها .

إن حس الدنيا سُلّم لهذا العالم ، وأما حس الدين فهو سُلّم السماء ، فاطلب صحة حس الدنيا من الطبيب ، والتمس صحة حس الدين عند الحبيب .

٣٠٥ ** وصحة حس الدنيا تجىء من سلامة البدن ، وأما صحة حس الدين فتأتى من خرابه .

وإن طريق الروح يخرب الجسم ؛ ولكنه يعود فيعمره بعد هذا التخريب . فهو كمن خرب دارًا من أجل كنز من الذهب ، ثم زادها عمرانًا بذلك الكنز ذاته !

أو كَمَنْ قطع الماء وطهّر مجرى النهر ، ثم عاد فأجرى ماء الشرب فيه .

أو كمن شق الجلد وانتزع منه رأس الحَرْبَة ، فنما على الجرح بعد ذلك جلد جديد .

٣١٠ ** أو كمن هَدَمَ القلعة ، وأخذها من الكفار ، ثم أقام على أرضها مائة برج وسَدّ .

ومن ذا الذى يصف صنيع من لا شبيه له ؟ إن ما قلته ليس إلا ما تمليه الضرورة !

فهو حينًا يظهر بتلك الصورة ، وحينًا بضدها ، فليس فى أمور الدين إلا ما يبعث الحيرة .

وليست هذه الحيرة من يوليه ظهره ، وإنما هى حيرة المحب أمام الحبيب ، والغرق - فى لجة حبه - والسكْر (بعشقه) .

فمن الناس من ولّى وجهه نحو الحبيب ، ومن الناس من ليس وجهه إلا وجه نفسه .

٣١٥ ** فانظر إلى وجه كل إنسان ، وكن منتبهًا ، فلعلك تغدو من التأمل عارفًا بالوجوه .

ولما كان كثير من الأبالسة يظهرون فى صورة الإنسان ، فليس يليق بالمرء أن يمد يده لكل يد .

ذلك لأن الصياد يصطنع الصفير ؛ لكى يوقع الطائر فى حبائله .

فيسمع الطائر صوت أبناء جنسه ، فيجىء من الهواء ، فيجد الشبكة والسكين .

إن الرجل اللئيم يسرق لغة الدراويش ليتلو على البسطاء أسطورة منها يخدعهم بها .

٣٢٠ ** وإن عمل الرجال لنور وحرارة ، وأما عمل الأخساء فاحتيال ووقاحة ! فقد يصنع الأسد من الصوف لأجل التسول ، وقد خلع بعض الناس على مُسيْلمة لقب أحمد !

فبقى لُمسيْلمة لقب الكّذاب ، ودام لمحمد نَعْت أُولِى الألباب .

إن شراب الحق ختامه المسك المصفى ، وأما الخمر فختامها النتن والعذاب .

* * *

* شـرح النصـوص *

« كنت قد ألحقت بنص الترجمة حواشي وتعليقات رأيت أنها ضرورية لإيضاح النص . وفي الصفحات التالية أقدم للباحثين شروحًا ودراسات ، وهي الشروح التي وصفتها بإيجاز ، وتشير الأرقام في هذه الشروح إلى أرقام الأبيات في الترجمة » .

(محمد كفافي)

(١ - ١٥) افتتح « جلال الدين المثنوي » بالحديث عن الناي ، لقد كانت هذه الآلة الموسيقية محببة إلى نفس الشاعر ، كان يستطيع العزف عليها كما كان هو ورفقاؤه يحبون الاستماع إليها في مجالسهم ، والناي من الآلات الموسيقية التي يمكن أن تعبر أنغامها عن الحنين والأسى بعمق وإبداع ، وقد اتخذ الشاعر من حنين الناي منطلقًا لمنظومته الكبرى .

فالناي رمز للنفس الإنسانية ، أنغامه حنين إلى أصله ، حيث منابت الغاب التي اقتطف منها ، قبل أن يشكل على تلك الصورة ، ويصبح من آلات الموسيقى وكذلك النفس الإنسانية تحن إلى أصلها الذي انفصلت عنه ، قبل أن تهبط إلى هذه الأرض ، وتحل في هذا الجسد ، وقد استطاع الشاعر أن يستخرج من هذا المعنى صوراً شعرية رائعة ، كما سنرى في تعليقاتنا على بعض هذه الأبيات .

(٢) لا يقتصر التأثر لأنغام الناي على الرجال وحدهم أو النساء وحدهن . . بل الناس جميعًا يتأثرون ، وكلهم يبكون لبكاء الناي ، وفي هذا إشارة إلى تشابه الرجال والنساء في أصلهم الإلهي ، واشتراكهم في الحنين إلى هذا الأصل ، وقد درج الشاعر في مواضع كثيرة من أشعاره على تأكيد الشبه بين الرجل والمرأة .

(٣) يروى الشاعر عن الناى أنه ينشد صدراً مزقه الفراق ليشرح له ألم الاشتياق ، فليس كل مستمع إلى الناى يتأثر به ، وإنما يجب أن يكون ذا نفس شاعرة ، تفقه الأنغام وتنفعل بها ، والإنسان الذى يعانى التجارب يستطيع أن يدرك مشاعر رفيقه إذا مَرّ بذات التجارب ، وإلا فهو فى وادٍ ورفيقه فى وادٍ ، يصدق عليهما قول القائل : « ويلٌ للشّجِىّ من الخَلِىّ » .

(٥) الناى قرين للبائسين والسعداء ؛ لأن كل فريق من هؤلاء يستمع إليه ، ويتأثر به ، على مقتضى الحالة النفسية التى يكون عليها ، فإن كان سعيدًا طَرَب له ، وإن كان حزينًا ، تولاه الأسى .

(٦) كل إنسان قد ظن أنه تذوق أنغامى ، وأصبح مدركًا لها ؛ ولكن لم يفتش أحد من هؤلاء عما كمن فى باطنى من الأسرار ، ولا عما تعنيه أنغامى وما ترمز إليه هذه الأنغام من معانى محتجبة .

(٧) الناى يحث مستمعيه على محاولة ادراك سر أنغامه ، ذلك السر المرتبط بالأنغام ذاتها ؛ لكنه لا يتجلى إلا للحواس المدركة ، التى تغوص وراء الأسرار .

(٨) ينتقل الشاعر من حديث الناى ببراعة إلى تأكيد وجود الروح فى الجسم الإنسانى . الروح ليس بمستور عن الجسم ولا الجسم بمستور عن الروح ؛ لكن مشاهدة الروح بصورة حسية لا تتاح لإنسان .

(٩) صوت الناى بما يعبر عنه نار ، وليس مجرد هواء ينفخه العازف بتلك الآلة الموسيقية ، فيولد هـذه الأنغام ، والمهم هو جوهر الأنغام ، لا مادتها ووسيلتها .

(١٢) صور متقابلة للناى ، إنه سم وترياق ، يثير الأحزان بأنغامه ، وفى ذات الوقت يشفيها ، وهو رفيق مشتاق ، يكون دائمًا فى صحبة الناس ، وهو مع ذلك فى حنين دائم واشتياق .

(١٣) الطريق الذى ملأته الدماء ، هو طريق المحبة الذى يكثر حديث الصوفية عنه ، فالناى يصور هذا الطريق ، ويحدث الناس بالعشق وقصصه ، التى منها قصة المجنون وليلى ، والصوفية قد اتخذوا من قصص الحب العذرى التى شاعت أخبارها ، مادة للتعبير عن المحبة الصوفية ، وقد نظم كثيرون من الصوفية قصة ليلى والمجنون وملؤوها بالمعانى الصوفية العميقة ، وأجروا على لسان هذين العاشقين ألوانًا من الحوار الرائع ، لا يمكن أن تكون قد خطرت لهما على بال ، ومن أشهر من فعل ذلك « نظامى الكنجوى » ، « وعبد الرحمن الجامى » .

(١٦) لا يبالى الشاعر بذهاب الأيام وانقضائها ، والمهم أن يبقى له ذلك الحب الإلهى ، الذى لا نظير له فى الطّهْر والنّقاء .

(١٧) المعانى الروحية لا يشبع منها من كانوا ذوى إدراك لها وإحساس بها ، فهؤلاء مثل السمك الذى لا يشبع من الماء ، أما من لم يكن من جنس هؤلاء فهو غريب عن تلك المعانى الروحية غربة سكان اليابسة عن الماء ، وكل من كان بدون رزق روحى ، يطول به اليوم فى انتظار رزق لا يتحقق .

(١٩) القيود هى حب الذهب والفضة ، والتعلق بالمال .

(٢٠) الطامع النّهِم يريد أن يحصل على كل ما يقع تحت حواسه وإدراكه ، والطمع وحده هو الذى يدفعه إلى ذلك ، فهو كمن يحاول اغتراف البحر بكوز ، وأى مقدرة للكوز على اغتراف ماء البحر ؟ وأى مقدرة للكيان الإنسانى على الإفادة من كل ما يقع تحت الحواس مما يثير الأطماع .

(٢٢) العشق الصوفى هو الذى يطهر النفس الإنسانية مما يقيدها من حرص مادى ، وما يشيع بها من عيوب أخرى ترتبط بذلك ، فالعاشق الصوفى يكون كل كيانه متجهًا لحقيقة واحدة يهون إلى جانبها كل شىء .

(٢٤) العشق الصوفى دواء للغرور والكبرياء ، فالعاشق يتجه بكل كيانه إلى معشوقه ، فتخرج من نفسه كل تلك الأحاسيس المرتبطة بالأنانية كالغرور والكبرياء ، فهو طبيب للنفس كأفلاطون ، وطبيب للجسم كجالينوس .

(٢٥) إشارة إلى قصة جبل الطور ، وكيف درك حين - تجلى الله لموسى - وقد عزا الشاعر دكّ الجبل إلى أنه أصبح عاشقًا لربه ، فخف كيانه الغليظ ، قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا** ﴾ . (الآية : ١٤٣) .

(٣٠) إن إحساس العاشق بوجوده الخاص يجعله غافلاً عن حقيقة المعشوق ، فهذا الإحساس الذاتى حجاب للرؤية الحقيقية ، العاشق ميت ، ما لم يفن وجوده فى ذات المحبوب الحى الخالد .

(٣١) رعاية العشق للعاشق ، أن يحل فى قلبه ، فيطهره وينقيه من الأنانية والغرور ، فإذا لم يحدث هذا فإن الإنسان يبقى تعسًا كطائر بلا جناح ، يريد أن يحلق لكن وسيلة التسامى لا تكون متوفرة له وحب الخالق ينبع من الخالق ، فكل من لم تضطرم نفسه بهذا الحب ، فقد حُرم أسمى الهبات .

(٣٢) نور الحبيب هو نور الله ، والعقل لا يدرك ما يحيط به إلا إذا أضاء السبيل له نور الحق .

(٣٤) إن النفس الصافية كالمرآة الصافية ، تعكس ما يتجلى فوق صفحتها ، أما النفس الكدرة فهى كالمرآة التى علاها الصدأ .

(٥٠) المؤمن بالإرادة الإلهية ، تكون روحه مقترنة بمفهوم عبارة - إن شاء الله - وهو سواء نطق بهذه العبارة أم لم ينطق بها ، فإن أعماله تكون مبنية على هذا الاعتقاد .

(٥٧) لُجّة الفناء هى لُجّة إفناء الذات ، وذلك بالتخلص من كل إحساس ذاتى ، ويتحقق هذا للصوفية بأن تنصرف كل جارحة من جوارحهم إلى الخالق ، وتنفصل عما يربطها بدنيا المحسوسات والعالم الظاهرى .

(٧٠) يرى الصوفية أن هذا العالم خيال ، ويربط « الجيلى » فى كتابه « الإنسان الكامل » بين هذه الفكرة وبين حديث مروى عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - نصه : (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)[١] .

(٨٠) فى هذا البيت إشارة إلى المَنّ والسَّلْوَى اللذين أنزلهما الله على قوم موسى [٢] .

(٨١) إشارة إلى قوله تعالى رواية عن بنى إسرائيل : ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا** ﴾ . (الآية : ٦١) .

(٨٣) قص القرآن الكريم أن الحواريين طلبوا من عيسى أن يدعو الله لينزل لهم مائدة من السماء ففعل . ﴿ **قال عيسى ابن مريم اللَّهُمَّ ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وأخرنا وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إنى منزلها عليكم . .** ﴾ .

(سورة المائدة ، آية : ١١٤ - ١١٥)

(١١١) إذا كان العشق للجمال الدنيوى هذا الجانب أو لجمال العالم الروحى ، فإنه يقودنا آخر الأمر إلى عالم الروح ، فكل جمال فى هذا الكون مستمد من جمال خلاق الوجود ، فهو المرجع والمقصد الأسمى لكل محب للجمال .

---

(١) الجيلى : الإنسان الكامل ، جـ ٢ ، ص ٢٧ ، القاهرة ، ١٢٩٣ .

(٢) قرآن : ٢ : ٥٧ ، وكذلك ٧ : ١٦٠ .

(١١٧) هذا العالم المادى ليس إلا ظلاً ، ومن ورائه تكمن الحقيقة الكبرى ، وقد رمز الشاعر لها بالشمس ؛ ولكن هذه الشمس الخالدة ليست كالشمس التى نراها فى هذه الدنيا ، فنورها أزلى خالد لا يغيب .

(١١٨) وهذا الظل ، أي العالم المادى يجيء بالنوم ، والمراد بقوله : « يجيء بالنوم » أنه يجعل الإنسان غافلاً عن الحقيقة العظمى المستترة وراء هذا الكون كله ، فهو يُلهى الإنسان ، كما تلهيه الأسمار والمجالس ؛ ولكن حين تشرق على القلب شمس الحقيقة ، يبدد نورها كل نور وهمى مستعار ، فالشمس حين تشرق ، ينشق القمر ، وانشقاق القمر مقترن بالبعث ، وكذلك إشراق الحقيقة على البشرية بصورة واضحة شاملة ، فيه بعث للروح من غفلتها .

(١٢٣) شمس الدين المقصود هنا هو (شمس الدين التبريزى) ، وقد كان هذا صوفيًا متجولاً نزل « بقونيه » ، ولقيه (جلال الدين) هناك ، فوجد فيه الإنسان الكامل ، والمثل الأعلى لما يمكن أن يطمع إليه البشر ، وقد أهمل الشاعر تلاميذه - بعد لقاء هذا الرجل - وتفرغ لصحبة هذا الصوفى ، مما أثار غضب هؤلاء التلاميذ فأخرجوا هذا الدخيل على أستاذهم من قونيه ، وطاردوه ، وقد حزن (جلال الدين) كثيراً لفراق هذا الصديق ، ونظم كثيراً من غزلياته الصوفية التى تخلص فيها باسمه ، ونسب إليه فى النهاية ديوانه المشتمل على أشعاره الغزلية ، فأسماه ديوان شمس تبريز ، وقد قتل التبريزى فى النهاية ، فحزن عليه (جلال الدين) أعمق الحزن ، ومما قاله فى رثائه :

« من ذا الذى قال إن شمس الروح الخالدة قد ماتت ؟
ومن الذى تجرأ على القول بأن شمس الأمل قد تولت ؟
إن هذا ليس إلا عدواً للشمس وقف تحت سقف ،
وربط كلتا عينيه ثم صاح : ها هى ذى الشمس تموت ! »

(١٢٥) ذكر شمس الدين قد نبه روح الشاعر ، وأيقظ فيه أحاسيسه ومشاعره الروحية ، فكأنه قميص (يوسف) الذى أيقظت رائحته فى (يعقوب) مشاعر الحب والحنان ، وقد عبر عن وسيلة التنبه الروحى بصورة حسية ، إذ قال : إن نفس شمس الدين جذب ذيل رداء روحه .

(١٢٨) الفناء الصوفى هو التخلص من الذات الإنسانية ، والاتحاد بالذات الإلهية ، وهو يختلف عند الصوفية عن عقيدة نفى الذات عند الهنود ، وتعرف هذه بالفناء ، فالفناء عند الصوفية المسلمين حالة إيجابية قرينة فى مدلولها للبقاء ، فالإنسان يفنى ليبقى ويخلد ، والشاعر يقول : إنه فى حالة الوحدة كلّت أفهامه أمام ما يشهده ، وما يستشعره ، فأصبح غير قادر على أن يحيط بأوصاف الثناء ، وفى قصة المعراج أن الله خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله « أثن علىّ » ، فأجاب الرسول قائلاً : « لا أُحْصِى ثَناءً عليك » ، فالشاعر كتب هذا البيت وفى ذهنه هذا الحديث .

(١٣٥) الصوفية يؤمنون بكتم أسرارهم ، وهم لا يبوحون بمكنون قلوبهم إلا لمن بلغوا شأواً عاليًا فى التصوف ، يقول القشيرى : « ويُطلق لفظ السر على ما يكون مصونًا مكتومًا ما بين العبد والحق سبحانه فى الأحوال ، وعليه يحمل قوله من قال : « أسرارنا بكْر ، لم يفتضها وهْم واهم ، ويقولون : صدور الأحرار قبور الأسرار » . (الرسالة . ص ٤٥) .

(١٣٩) لو تجلت حقيقة الذات الإلهية لإنسان لما استطاع الصمود أمامها ، ومن أمثلة ذلك بالنسبة للجماد قصة جبل الطور الذى دُكّ حين تجلى عليه الخالق .

(١٤٩) يروى جلال الدين هنا قصة معروفة ، رواها « ابن سيناء » في كتاب القانون (ص ٣١٦ - عن الحب) ، ورواها كذلك - بصورة مختلفة بعض الاختلاف - نظامى عروضى سمرقندى فى كتابه « المقالات الأربع » (ص ٧٨ من النص الفارسى ، طبعة لندن) ، وقد روى الشهرستانى فى هذه القصة فى حديثه عن طبيب اليونان « بقراط » ، ولم يكن الطبيب الذى قام بالعلاج فى القصة سوى بقراط نفسه ، أما بطل القصة فأمير « عشق جارية من حظايا أبيه ، فنهك بدنه واشتدت علته ، فأحضر بقراط فجس نبضه ، ونظر إلى تفسرته ، فلم يَرَ أثَر علَّة ، فذاكرة حديث العشق . . فرآه يهش لذلك ويطرب ، فاستخبر الحال من حاضنته ، فلم يكن عندها خبر ، وقالت : ما خرج قط من الدار ، فقال بقراط للملك : مُر رئيس الخصيان بطاعتى ، فأمره بذلك ، فقال : أخرج علىَّ النساء ، فخرجن ، وبقراط واضع إصبعه على نبض الفتى ، فلما خرجت الحظية اضطرب عرْقه ، وطار قلبه ، وحار طبعه ، فَعَلم بُقراط أنها المعنية لهواه » . الشهَرستانى ، جـ ٢ ، ص ١١٨ - القاهرة ١٩٥٦) ، ورواية الشاعر تختلف فى بعض تفاصيلها عن الروايات السابقة عليه ، كما أن الشاعر - على عادته - يستخدم تفصيلات القصة أساسًا لحِكَم كثيرة استنبطها من ثناياها .

(١٥٠) لا يترفع الشاعر على العادات والتقاليد الشائعة بين الناس ، فهو يذكرها فى شعره ، لو كانت لها قيمة أيضًا حية ، وهو يصور فى هذا البيت الطريقة التى يخرج بها العامى - الذى يسير حافى القدمين - شوكة أصابت قدمه ؛ ولكنه ينتقل من هذا ليتحدث فى البيت التالى عن الأشواك التى تصيب القلوب ، وهي الهموم والوساوس والأوهام .

(١٦٥) الخبز والملح ، كناية عن العشْرة ، كما هو معروف ، فمعنى البيت أن الجارية حدَّثت الطبيب عن الأماكن التى عاشت بها ، والناس الذين عاشرتهم فى تلك الأماكن .

(٢٠٦ - ٢٢٧) الحُسْن الظاهرى قد يكون سببًا لهلاك الروح ، ويضرب الشاعر لذلك أمثلة مُعبِّرة فى بعض هذه الأبيات .

(٢٢٢-٢٢٤) يتحدث الشاعر فى هذه الأبيات عن القصة ومغزاها ، وعنده أنها ليست قصة جريمة ، فهذا القتل الذى وقع على الرجل ، حدَث لأن هذا الرجل قد قتل بجسده روحه ، فاتسحق الجسد ، الموت من جراء ذلك ، وهناك أنواع من القتل لا تدخل فى عداد الجرائم ، ومن أمثلة ذلك قتل (الخضْر) للغلام ، وقد ذُكِرَتْ فى القُرآن الكَريم قصة ملاقاة الرجل الصالحَ (الذى يقال أنه الخضر لموسى) ، وقَتْله الغلام على مَرآى منه ، قال تعالى فى سورة الكهف : **﴿ فانطلقا حتى لقَيا غلاماً فقتله قال أقتلت نَفْساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا ﴾** . (آية : ٧٤) .

(٢٤٠) يروى عن الرسول حديث بهذا المعنى نصه : **« إذا مُدِحَ الفاسق غَضِبَ الرَّبُ واهتز لذلك العَرْش »** .

(٢٤٥) الخالق واسع الكرم إزاء عباده ، فهو - إذا جردهم من حياة تافهة ، وهبهم عوضًا عنها حياة عامرة عظيمة ، تعدل مائة حياة مما اعتادوا عليه ، ومما روى فى الحديث القدسى عن الرسول - صلى الله عليه وسلم : **« أعْدَدْتُ لعبَادِى الصَّالحين ما لا عَيْنٌ رَأتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلب بَشَرٍ »** .

(٢٤٦) الواجب على الإنسان ألا يقيس كل أمر بمقياسه الخاص ، وألا يتخذ من نفسه ميزانًا لتقدير كل الأمور حتى ما كان منها خارجًا عن مدركاته .

(٢٨٨) المروزى هو المنسوب إلى مدينة مرو وأما الرازى فهو المنسوب إلى الرى ، وهذان يتصاحبان على الطريق ؛ لكنهما فى النهاية يفترقان ، إذ يمشى كل منهما إلى مدينته .

(٢٩٦) « **أُم الكتاب** » ذُكرت مرات عديدة فى القرآن الكريم ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ **يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أُم الكتاب** ﴾ (آية : ٣٩)

والتفاسير السنية - فى أغلب الأحوال - تذكر أن أُم الكتاب هى «اللوح المحفوظ» الذى سجل فيه ما كان وما يكون ، وقد عبَّر « **الجيلى** » - فى كتاب الإنسان الكامل - عن معنى « **أُم الكتاب** » بعبارات فلسفية صوفية إذ قال : « إعلم أن أُم الكتاب عبارة عن ماهية كُنه الذات المعبر عن بعض وجوهها بماهيات الحقائق ، التى لايطلق عليها اسم ولا نعت ، ولا وصف ولا وجود ولا عدم ، ولا حق ، ولا خلق ، والكتاب هو الوجود المطلق الذى لا عدم فيه ، وكانت ماهية الكنه أُم الكتاب لأن الوجود مندرج فيها اندراج الحروف فى الدواة » . (الإنسان الكامل ، جـ ١ ، ص ٧٥) ، ويفرق الجيلى بين « أُم الكتاب » وبين « اللوح المحفوظ» ، يقول عن « اللوح المحفوظ » : اعلم - هداك الله - أن اللوح المحفوظ عبارة عن نور إلهى حق متجلٍّ فى مشهد خلقى ، انطبعت الموجودات فيه انطباعًا أصليًا ، فهو أم الهيولى لأن الهيولى لا تقتضى صورة إلا وهى منطبعة فى اللوح المحفوظ . . » (الآية : ص ٦) .

(٢٩٧) المؤمنون والكفار يعيشون معًا فى هذه الدنيا ، وكلٌّ من هذين الفريقين لا يمتزج بالآخر ، فهما كالبحر العذب والبحر المالح . . بينهما برزخ لا يبغيان تجاوزه وتخطيه .

(٢٩٨) الخالق أصل كل شىء ، ولا يكون فى الكون شىء بدون مشيئته أو رغم إرادته .

(٢٩٩) المحك هو العرفان الصوفى، فهو الذى يجعل الإنسان قادراً على تمييز الحق من الباطل ، وهذا العرفان المبنى على الكشف هو المحك الصادق عندهم ، أما العقل والحواس فغير قادرة على هذا التمييز ، وفى البيت التالى (رقم ٣٠٠) إيضاح لهذا المعنى .

(٣١٣) يتحدث الشاعر هنا عن لون من الحيرة ليس مصدره الجهل وإنما هو مبنى على الحب والإعجاب . وهذا الحب والإعجاب - حينما عظماوتزايدا - أصبحا بمثابة الحيرة والعجب ، فالحيرة هنا حيرة العالم أمام روعة ما يعلم وليست حيرة الجاهل العاجز عن إدراك الأشياء ، كأنما هو قد ولاها ظهره .

(٣١٦) يميل بعض شُراح المثنوى إلى أن يفسروا هذا البيت على أنه يشير إلى المبايعة المعروفة عند الصوفية ، والتى تقترن بالمصافحة بالأيدى بين الشيخ والمُريد ؛ ولكن صيغة البيت يمكن أن تنطبق على العلاقات العادية بين الناس ، تلك التى تفرض على كل إنسان ينشد السلامة والأمان ألا يتعامل مع كل من يعرض له من الناس ، وإنما يختار من يستطيع الركون إليهم ، وإلى صدق وفائهم .



(عشاق الجزء .. والكل)

*** يقول « جلال الدين الرومى » (٦٠٤ - ٦٧٢هـ) :**

- « إن عشاق الكل ليسوا بعشاق للجزء ، فإن من اشتاق إلى الجزء ، عجز عن الكُل .

« وإذا ما أصبح جزء عاشقًا لجزء ، فسرعان ما يعود المعشوق إلى كُله .

(فهذا العاشق) قد صار سخرية لمن كان عبدًا مملوكًا لغيره ، فكأنه غارق تشبثت كَفَّاه بضعيف .

فليس هذا المعشوق بمالك أمره حتى يعنى بعاشقه ! وهل ينهض بواجب سيده ، أم ينهض بواجب العاشق ؟

* * *

*** (إذا عشقت فاعشق الحُرَّة .. وإذا سرقت فاسرق الدُّرَّة)**

من أجل هذا الذى سنوضحه أصبح قولهم) « اعشق الحرة » مثلاً ، ولهذا أيضًا ذاع قولهم : « أسرق الدرة » .

فالعبد (المحبوب) قد عاد إلى سيده ، لقد رجع عبير الوردة إلى الوردة ، وبقى له الشوك .

وهكذا بقى بعيدًا عن مطلوبه ، سعيه باطل ، وتعبه ضائع ، وقدماه داميتان !

إنه كالصياد الذي يتصيد الظل ! فهل يصبح الظل من ممتلكاته ، أو كرجل أطبق كفه على ظل طائر ، على حين أن الطائر على غصن الشجرة قد حار فى أمر هذا الرجل .

يقول : « عجبًا ! من أى شىء يضحك ذلك الأحمق ؟ » فهاك باطلاً وسببًا واهيًا متحللاً [1]

فإن قلت إن الجزء مرتبط بالكُل ، فلتأكُل الشوك ، فإن الشوك مرتبط بالورد .

فالجزء ليس من أى وجه مرتبطًا بالكُل ، وإلا لكان باطلاً بعْث الرُّسل [2]

فمادام الرسل قد بعثوا لربط (الأجزاء بالكل) ، فلماذا يربطون ، إن كانت الوحدة (قد تحققت) ؟

إن هذا الكلام لا نهاية له ، أيها الغلام ! وقد تأخر الوقت ، فلتكمل القصة [3]

*** كيف قَدّم الأعرابي الهدية :**

لقد قدّم الأعرابى أبريق الماء ، وغرس فى تلك الحضرة بذور الخدمة ، وقال : « احملوا إلى السلطان هذه الهدية ، وخلصوا سائل الملك من الحاجة !

(١) الشاعر يخاطب القارئ بهذه العبارة .

(٢) لو كان البشر جميعًا متصلين بخالقهم لما كانت هناك ضرورة لبعث الرسل للإرشاد والهداية ، والعمل على ربط البشر بخالقم .

(٣) قصة الأعرابى .

إن الماء حلو ، والإبريق أخضر اللون جديد ! الماء من المطر الذى تجمع فى الحفرة » !

فضحك النقباء من ذلك ؛ ولكنهم تقبلوا الهدية معتزين بها كالروح ، ذلك لأن لُطف الملك الطيب الحكيم كان قد أثَّر فى كل أركان دولته .

فطبيعة الملوك تؤثر فى رعاياهم ! إنها كالسماء الخضراء [1] ، تجعل الأرض مخضرة يانعة .

اعلم أن الملك كحوض للماء ، فى جوانبه أنابيب ، يتدفق الماء فيها إلى حفر السقاية .

فمادامت الأنابيب كلها تحمل الماء من حوض نقى ، فإنها جميعًا تفيض بماء عذب حلو المذاق .

فإن كان الماء فى الحوض مالحًا عكرًا ، فإن كل أنبوب يأتى بذات الماء .

ذلك لأن كل أنبوب متصل بالحوض ، فلتتعمق فى ادراك مدلول هذا الكلام !

ولتتأمل لطف الروح ملك الملوك ، الذى لا وطن له ، وكيف أثَّر فى البدن كله

ولطف العقل ذى الطبع الكريم ، والنسب العريق ، وكيف يُلزم الجسد كله حدود الأدب !

---

(١) السماء الخضراء أي المشتملة على السحاب الذي هو مصدر الخضرة .

و « العشق » المحبب الذى لا قرار له ولا سكون ، وكيف يحمل الجسم كله على الجنون !

ولطف ماء البحر الذى هو مثل الكوثر ، وكيف يقذف بحجارة من الدُّر والجوهر !

وكل فضل يُعرف به الأستاذ ، فإن أرواح تلاميذه تغدو به متصفة .

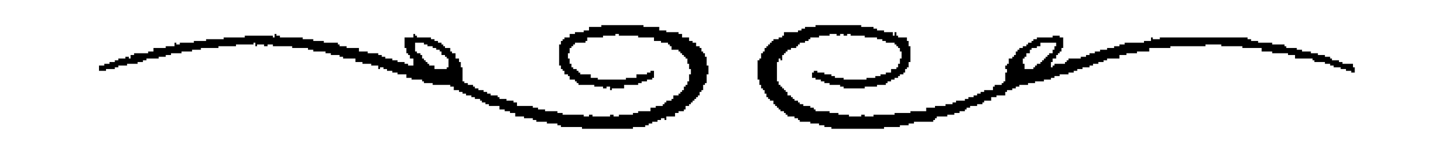
فالتلميذ الذكى المجتهد يقرأ الأصول على أستاذ الأصول .

ودارس الفقه يقرأ الفقه على أستاذ فقيه ؛ ولكنه لا يدرس عليه الأصول .

فإذا ما كان الأستاذ نحويًا ، فإن روح تلميذه تصبح نحوية بتأثيره .

أما الأستاذ الذي يكون فانيًا فى الطريق ، فروح تلميذه تكون فانية فى المليك .

وعلم التصوف – من بين العلوم جميعًا هو خير عُدة وزاد ، يوم موافاة الأجل .



(عشق الفلاسفة)[1]

في صباحٍ وروضةُ الزهر سكرى
بالنسيم العليل والانداء
رفعتْ وردةٌ تفتّح منها الزهرُ
تواً رأساً إلى العلياءِ
وتعالت على الورود بدلٍّ
وتباهت بحسنها الوضّاءُ
فتصدّى لها من الروض طيرٌ
عشقُه عشقُ سائرِ الحكماءِ

***

يعشق الحُسْنَ والجمال ولكن
لَمْ يَرُقْهُ تَغَنُّج الحسناء
هاتفاً : قَدْكِ يا ابنةَ الروضِ غنجاً
ودلالاً ينّم عن كبرياءُ
أفتدرين كم تفتّح وردٌ ؟
قبل أن تحلمي بشرب الماءِ
أفتدرين كم تفتح وردٌ
في صباحٍ وقد ذوى في المساءِ
خففي المُزْدَهي فقد عرفَ
الروضُ كثيراً من هذه الأشياء

---

(١) عن « حافظ الشيرازي ، شمس الدين محمد (حوالي ١٣٢٠ - ١٣٨٩م) .

فـعلتْ ثغـرهَا ابتــســامــةُ لطفٍ

لَمْ يَشُبْهــا شيء من اســتــهــزاء

وأجــابت : كل الذى قلتَ يا طيــرُ

بـحقٍ قــــد قلتَ دون مــــراءِ

لم يغظني الحق المقــدّسُ والوعظُ

ومـــا أنت قـــائلٌ فى ازدهائى

غــيــر أنى لَمْ ألقَ يوماً مــحــباً

يلتــقى حُبّهُ بهــذا اللقـــاءِ

***

لم أجــدْ عــاشــقاً يغــازلُ

مـعـشوقـا له فى قسـاوة وجـفـاءِ

شـيـمـة العـاشـقين فى الحب لطفٌ

وغـلـــو فـى المـدحِ والإطــراءِ

وتَفــانٍ تـســمـــو به الروح فى

الخلد سَمُوَ الأبطال والشـــهـــداء

لا كـــلامٌ تــسوده غلظةُ القــولِ

ووعـظٌ يـليقُ بـالأنبــــيــــاءِ



العشــق
فى
الهنـــــد

(العشق فى الهند)

* ويقول أبى الطيب الوشاء أيضاً :

- « قد بلغنا أن ببعض بلاد الهند قوماً لا يعشقون ، ويرونه ضرباً من السِّحر والجنون ، وذلك لمن فيهم الفلسفة ، ولهم الحكمة والتجربة .

« وزعموا أن العشق سبب النوى ، وفيه المذلة والعناء ، ومنه يكون السقم والضنَى ..

« وأسرع من فى النساء وفاء : أسرعهن خيانة وجفاء .. وأعطاهن حلفاً وأيماناً : أسرعهن خبثاً وسلواناً ..

« فيا رحمتى للأدباء ، وشفقتي على الظرفاء .. ما أطول بلاءهم ، وأكثر شقاءهم ، وأسخن عيونهم .. يُبتلى العزيز منهم بالذليلة ، والكثير منهم بالقليلة ، والشريف بالدنية ، والنبيل بالزرية .. فيطول فى عشقها سهره ، ويكثر فى أمورها فكره ، وتنهل عليها إذا نأت دموعه ، ويطول لديها إذا قربت خضوعه ، وهى تظهر له المحبة ، وتبدى له الرغبة ، وتحلف له بالأيمان المحرجات ، والعهود الموكدات أنه حظها من الآدميين ، وشغلها دون سائر العالمين .. وتُريه الجزع عند الفراق ، والفرح عند التلاقى .. فتملأ قلبه هماً ، وتورثه ضنى وسقماً ، وهى تكاتب سواه ، ولا تعبأ بهواه .. لها فى كل زاوية ربيط ، وفى كل محلة خليط » ، لم يعدها قول الشاعر :

فيما من ليس يقنعها محب
ولا ألفا محب كل عام

أظنك من بقية قوم موسى
فهم لا يصبرون على طعام

أتيت فـؤادها أشكو إليـه
فلم أخلص إليـه من الزحـام

* * *

« ومن أكثر المحال ، وأحمق المقال : قناعة المرأة بصديق ، وصبرها على رفيق .. أحسن من فيهن حالاً ، وأقلهن أشغالاً : من لها صاحب مشهور ، وخليل مستور ، وربيط تراسله ، وصديق تحامله .. وإن كان ذلك لا لمال ، ولا لطمع وآمال .. فقد كنا وصفنا القينات ، وما طُبعن عليهه من المكر والخيانات ، أنهن يكتسبن بالهوى والعشق ، ويُدارين بالتعلق والرفق ، وليس بنات البيوت في الخدور ، وربات الحجال [1] والقصور ، مثل ذوات المذق من القينات ، وكذوات التكسب من المتقنيات .. فإن هؤلاء معروفات بطلب النقود والأموال ، منسوبات إلى التكسب بتعشق الرجال .. لا يقدم عليهن إلا مغرور ، ولا يثق بهن إلا مسحور .. وإنما يذهب على أهل الألبب ، وأهل التظرف والآداب ، مكر البنات المخدّرات ، والغواني المحجبات ، اللواتي لم ترهن العيون ، ولم تكثر فيهن القالة والظنون ، اللواتي يبذلن نفيس الأموال لمن يتعشقنه ، ويعنين من راسلنه وكاتبنه ، وتزعم أنهن وراء الحجاب ، ودون الأقفال والأبواب ، وأنهن لا فرج لهن إلا في المكاتبة ، ولا فرح إلا في المراسلة ، ولا سرور إلا في النظر من بعيد ، ولا يقدرن على اللقاء إلا في الخروج في كل عيد ، وأولئك اللواتي تخف أمورهن ، وتعنى سرائرهن ، ويطمع الجاهل فيهن ، ويصبو النزق [2] إليهن ، ويثق بحبهن الأحداث والأطفال ، ولا يتمسك بمودتهم إلا الجُهال ، مع أن مكرهن أخفى من الخيال ، وأعظم من راسيات

---

(١) الحجال : جمع حجلة : ستر يضرب للعروس ، أو بيت يزين لها .

(٢) نزق الرجل : نشط وطاش وخف عند الغضب . .

الجبـال ، تنفـذ حيلهن على الرجـال، ويتمكن كيـدهم من الأبطـال .. وفيما خبر الله (جل ثناؤه) فى بعض القـرآن من عظيم كيدهن ، ولُطف حيلهن ، ما يغنى عن شرح كثير من سرهن ، وإن فى قصـة « زليخـا » و « يوسف » مـا يستغنى به ذو العقل والأفهـام من مكرهن القوى ، وكيدهن الخفى .. ولن يحترز منهن إلا المجرب ، ويتقى منهن إلا المدرب .. فإن ذا الحنكة إذا كـان بهن عليمـاً ، وكـان فى أمـورهن حكيمـاً ، أخـذ من حبهـن عفـوه ، وشـرب من هواهـن صـفوه ، ولم يعلق بهن فؤاده ، ولم يملكهن قياده .. وذلك الحَسَن الحـال ، والرخى البـال.. لم تؤرّقه الغموم ، ولم تنضجه الهموم .. لا كالذى غلب عليه الشقاء ، وأُتيح له البـلاء ، فركن إلى حبهن ، ودعته الرغبـة إلى ودّهن .. فتمكّن منه الهوى ، وتفرد به الضنى .. وتلك لا تشعر بسهره ، ولا تعبا بفكره .. وبالله أقسم صـادقاً لو حلفت ، أنهن لا يعـرفن شـيئاً من الوفـاء ما حنثت .. ولو بحث المغرور بهن ، المخدوع بحبهن عن صحيح أخبارهن ، وفحص عن مكنون أسرارهن .. لوقف على صورة غدرهن ، ولظهر له جمـلة من مكرهن .. ولهن عليه بعد الكرامة ، ولرجـع على نفسـه بالملامـة .

« فهكذا لعمرى ينبغى أن يحذر الأدباء ، وبمثل هذا فليتعظ الظرفاء ، ويجب على العاقل المتأدب ، وذوى الحنكة والتجارب ، أن يجعل المرأة بمنزلة الريحـانة يتنعم بنظرتها ، ويتمتع بزهرتها ، حتى إذا جاء أوان جفافها ، وحالت عن حالها فى وقت قطافها ، نبذها من يده وألقاها ، وباعدها من مجلسه وقلاها .. إذا لم يبق فيها بقية لمستمتع ، ولا لذة لمتمتـع » ..

« والكلام – فى هذا الباب – مطرد ، والقول فيه منسرِد .. ولكن كرهت به إطالة الكتاب ، واقتصرت على قليل من الخطاب ، وأبديت نصيحتى للأدباء ، وأهل المعرفة والعقلاء .. وأخبرت بما صح عندى ، وبالغت النصيحة جهدى .. فإن رغب فيها راغب فغير ملوم ، وإن زهد فيها زاهد فغير مذموم » .





العشـــق
فى
الفـــكر الغـــربى

(خيــال العاشــق)

* يقول « د . فرانسوا جوست » :

إليك الآن شكلاً آخر من أشكال التوله العفوى ، وهو أصعب كنهًا وبحاجة إلى انتباه كثير لفهم طريقته ، واستطلاع أمره فى حياتنا العاطفية .

فالرجل ليست له صفات الرجولة وحسب ، فهناك فى أعماق حياته اللاوعية ناحية أنثوية تنضم إلى العنصر البارز من شخصيته الرجُلية ، وتظهر تلك الناحية الأنثوية فى الصورة التى يكوّنها الرجل عن المرأة ، والتى تختلف باختلاف كل رجل .

وتملك المرأة هى أيضًا إلى جانب هويتها الأنثوية صورة عن الرجل ونموذجًا معينًا يختلف باختلاف كل امرأة .

والصورة الأنثوية التى يملكها الرجل هى من صوغ تاريخه الفردى ، والتأثيرات الأنثوية التى ألمّت به ، وخياله ، وتكوّن من ثمّ جزءا لا يتجزأ إنيّته وشخصيته ، وهذ النموذج الأنثوى الذى يحمله فى ذاته يجب أن يميزه من أى امرأة حقيقية يصادفها إبّان حياته .

هناك من الرجال ، ذوى المخيلة المتيقظة ، من إذا عثر على امرأة تتلاءم والصورة الأنثوية التى يحملها ، أضفى عليها ذاك الجزء من ذاته وراح يؤدى لها عبادة حُب متدلّه .

والواقع أن المحبوب الذى يعبده ذاك العاشق الواله ليس امرأة حقيقية . . بل تلك المرأة التى ابتدعتها مخيلته ، أو قُل : ذاك النموذج الأنثوى الذى يحمله فى طيات كيانه ، فهو موهوم بظنه أنه يحب المرأة

الحقيقية التى أمامه ؛ بينما هو - فى الواقع - مغرم بالصورة الأنثوية التى يحملها فى ذاته .

وإنما يُتفق أحيانًا أن توجه أوجه شبه واضحة جدًا بين النموذج الأنثوى -الذى يحمله الرجل - والمرأة الحقيقية ، ففى مثل هذه الحال ، يتم التناسق بين الطرفين وينشأ بينهما وحدة راسخة .

« ولكن كثيرًا ما تطغى على العاشق مخيلته ، فلا يعود يرى المرأة على واقعها الراهن .

« فالعاشق يكوّن شخصية حبيبته من عناصر زهيدة جدًا ؛ بل هو يحسن التكوين بمقدار ما تكون المادة بين يديه هزيلة العنصر .

« وقد تجد أكثر الرجال تطلبًا يعلقون من النساء ، الضعيفة الشخصية التى تكاد تكون فقط إهابًا مستحبًا ، فحيث لا يوجد شىء يُذكر ، يستطيع الرجل أن يتخيل كل شىء : التمثال المقطوع رأسه ، أو المبتور ذراعه يكتسب جمالاً لأن مخيّلة الإنسان فنانة عظيمة ، بإمكانها أن تصوغ منه تمثالاً كاملاً .

« كذلك المرأة الصموت تبدو متوقدة الذهن لعاشقها الذى يُضفى عليها صفة الذكاء ؛ ولكن أى إنسان آخر يستمع إلى ذات المرأة لا يتمالك من الحكم عليها حُكمًا قاسيًا ، مستغربًا تهور صاحبه ، وانعدام بصيرته .

« من لا يرَ فى الإنسان إلا ما في حقيقة ، استغلقت عليه تصرفات الحب الغريبة ، تمليها صفات لا توجد فى الكائن المحبوب ؛ بل فى مخيّلة المحب ، ومن ثَمَّ فإن أول مرحلة فى الحب هى من صُنع المخيلة يحدوها الشوق والجَوَى ، فتُضفى على امرأة ما جميع صفات السحر والجمال ، وتعيّن لها دور الحبيبة » ! .

(أندريه موروا - ١٨٨٥ - ١٩٧٨م)

***

(خطرات فى العشق)

* أيها الحب ، عبثًا يتفلسفون فى معانيك ، وعبثًا يعلمونتنا أنك وهم ، وعبثًا يفحصون عاطفتك التى ترسل وحيًا إلى القلوب ويصوبون إلى مقاتل الحياة سهام البؤس المميتة من تحليله المشين ، فقد يعلن الفيلسوف أن غايتك الزهو والغرور ؛ ولكن العاشق ينظر باحتقار إلى فلسفته الباردة .

إن الطبيعة تؤكد له إنك عاطفة جميلة وسامية .

وهو يجيب : أتقدر أن تحرم الشمس من حرارتها لأن أشعتها يمكن تحليلها وانحلالها ، أو هل الماس يضيء بلمعان أقل لأنك تستطيع أن تحلل بهاءه .

* * *

* يا له من سرّ هو الحب . إن كل حياتنا بما فيها من ضرورات وعادات تتلاشى أمامه .

إن الأكل والنوم اللذين ، فى الظاهر ، يتقاسمان كياننا كما يتقاسم الليل والنهار الزمان بينهما ، يفقدان كل تأثيرهما على العاشق .

هو كائن روحانى يصلح فقط أن يعيش على طعام الآلهة الذى يحفظ الإنسان شابًا كل أيام حياته ، وأن ينام فى فردوس يصوره له الخيال ، فهموم الحياة لا تمسه ولا تكون أكثر حوادثها اضطرابًا وشغباً فى نظره سوى حوادث الأيام المنصرمة ، وتكون كل ثروة العالم غير حبيبته بؤسًا ، ومعها تكون كل مصائبه حُلمًا زائلاً .

إن الثورات والزلازل وانقلاب الحكومات ، وسقوط الأمبراطوريات ليست فى نظر العاشق غير ألعاب صبيانية تشمئز منها نَفْس الرجل الشّهْم .

إن الرجـال يعـشقـون فى زمن الطـاعـون ، وينسـون الوبـاء ، ولو أنه يفتـك بالعبـاد حولهـم ، هُم فى حياة مسـحـورة كلها غبطة وسرور ، ولا يفكرون فى الفناء حتي يمس معبودهـم . . وحينئذ يموتون بدون تجرع غـصـات المنون وغـمـراته كـالمتـعـصبين الذين يموتـون من أجل دينـهـم المضطهـد .

***

إن الرجل العاشق يجول فى العالم كالماشى فى نومه بأعين تظهر أنها مفتوحة لأولئك الذين يلاحظونه ، بيد أن الحقيقة هى أنهم لا ينظرون غير أوهامهم الداخلية .

(بيكنسفيلد)

***

* شـيخوخة العاشـق هى الشـقاء والإهـانة ؛ لأنه كمـا قـال « هوميروس »[1] : « يقضى العاشق شبابه وهو لا يدرى ، ثم يصرف طور الرجولية فى الندم على ضياع الشباب ، وفى الكِبَر يفنى نفسه فى العُزْلة والاحتقار » .

***

« العاشق : عبدٌ رَقٌ . إنما يعزّ عليه أن يعتق نفسه ، أو يتحرر من مظالم مستعبده » ! .

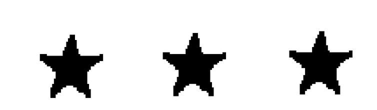
(جنســن)
(١٧٠٩ - ١٧٨٤م)

(١) « هوميروس » . . القرن التاسع قبل الميلاد .



فهـرس الكتـاب

فهرس الكتاب





دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع

٨ ش أبو المعالى (العجوزة) الجيزة - ت/ فاكس : ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم - جيزة
تليفون وفاكس ٥٦٣٤٦٩٩



هــذا الكتاب يروى لنــا كيفيــة العشــق فى الأدب الفــارسى ؟ وحكاية للأمــيــر «عنصر المعالى» ، وكيف كان العشق عند «سنائى» ؟

كيف يكون الطريق إلى الله بالقلب ، والعشق ؟

ما هى قصة «آدم» بين العلم والعشق ؟

ما هى حكاية العاشق الذى كان يضحك وهو يحتضر ؟

من هو الذى فقد قلبه بسبب عشقه ؟

ما هو المثال الكامل للعشق ؟

ما هو العشق الكامل عند «العطار النيسابورى» ؟

من هو الذى قتل عشيقته خوفاً عليها من الموت ؟

كيف كان عشق الفلاسفة فى رأى «حافظ الشيرازى» ؟

كيف يكون العشق فى الهند ؟

وفى هذا الكتـاب - أيضاً - سنعرف الكثير عن كيفية العشق فى الآداب الغربية والآسيوية .

وكيف عشقت بنت الملك غلام السلطان ؟

وكيف يكون العشق فى مثنوى «جلال الدين الرومى» ؟

سنرى صوراً من خـيـال العـاشق ، وسكون العـشق ، وكـيـف كـان عشق المجنون .. وغيره .

ولغة العشق يحسنها كل محب فى الوجود .

دار الأمين — طباعة • نشر • توزيع — DAR AL-AMEEN

٨ شارع أبو المعالى (خلف المعهد البريطانى) العجوزة - تليفون / فاكس ٣٤٧٣٦٩١

٩ ش سوهاج من ش الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم - تليفون/ فاكس ٥٦٣٤٦٩٩

١٠ شارع بستان الدكة (من شارع الألفى) مطابع سجل العرب - القاهرة - ت : ٥٩٣٢٧٠٦